

البياتية والخيام وهافته الأقدار ..

بقلم مدني صالح



ويطل الخيام عبر قرون فيها شاه ... وعبر أجيال سجدت للشاه لانه الشاه ... وعبر أحداث كثيرة فسي شؤون شتى صغيرة وكبيرة تلاشت وزالت مع زوال هيجان الانسان الفرد المشتعل في اعصار بلاده اللاجوهري ، وفي ثورة وغليان اللامنطقي ، وفي تخبط الانسان في ظلمات اللاطبيعي واللانساني .

ويطل الخيام فردا منطقيا ، انسانا معبرا عن النوع جوهريا ومنطقيا وطبيعيًا ، ومعاصرا بقدر حتمية الملازمة بين الوضعية الطبيعية المنطقية من جهة والانسان الخالد من الجهة الاخرى ... وذلك لان الجوهري المنطقي الطبيعي لا يكف عن ملازمة الانسان ولا ينفك عن المعاصرة لحظة ما دامت عصصور وما دام انسان رغم اشتداد هيجان الانسان في اعصار بلاده الاعتبارات اللانسانية والتي نشرف افرادا في جيل كي تدل النوع وبهينه في مستقبل الاجيال ...

وكما يطل سقراط معاصرا مع مشرق كسل شمس ، يطل المسيح وغاليلو وافلاطون والحلاج ... ويطلون وعلى جبين كل منهم قضية ، وقضية معاصرة وملازمة لي ولك والبياتية والخيام ، ولجميع الافراد في حدود طبيعية ومنطقية وانسانية النوع .

ويتقمص البياتي شخصية الخيام تارة ، ويلقي على الخيام أنوابا بياتية تارة أخرى ، حتى جاءت سيرة البياتي سيرة خيام بابلي معاصر وملازم لتطور أحداث الانسان ولحواره الداخلي ، بلا انقطاع ، وبتوافق مذهل ... وهكذا تاتي أصوات البياتي عبر العصور المديدة ومن نيسابور ، فيصدها جسد بابلي - من بقايا ما قد شيد السحرة من صرح - ويرجمها أصداء خيامية ، نصف الحاضر كما وصفت الماضي وكما ستصف النوع اطلاقا ، عبر الزمن بلا انتهاء ، وحتى آخر الدنيا بلا نهاية ، رغم التخبطات البليدة والمستنزفة لسعادة الانسان ، بقيادة بلداء الاجيال وبخبرة بلهاء ما أجادوا الإبحار قط الا حول الخطأ بحثا عن ليرة ، وحول الخرافة بحثا عن دينار ... وكما استبشرت الاجيال فرحا بخبرة البحارة ؟ يا لعذاب الحلاج !

وكم باركت الاجيال قيادات غبية ؟ يا لمحنة أبي العلاء ... وتبارك الاجيال الشقية كل دجال يتيه في الإبحار حول بيته مرتين ، ويدعي انه قد دار حول الارض ألف مرة ومرة ... فيا لخير البياتي ، وحيرة كل حلاج ، وكل سقراط ، وكل غاليلو ، وكل خيام ، وكل آدم وكل انسان :

((مولاي لا غالب الا الله -

فلتفسل السحابة

أدران هذي الارض هذي الفاه))

اذن - وستكون مقالتي هذه ابتدائية تعليمية - ففي الارض أدران ، وفي الارض سحابة ... وفي الواقع وعناء ، وفي المتوقع قدرة تسمح عن الواقع كل ما تراكم من قذى حملته العيون عصورا طويلة وتمطت العصور ...

وهل أحسن من فرن السحاب لفسل أدران الارض ؟؟ اذن فالبياتي وبادء طبيعي ، وبسهولة وطبيعية الاستدعاء الذهني المتوقع في حدود العس والتجريب ، يستمطر السماء ويستسقي سحابة ، كي تسيل أمواه السحابة وتجرف أدران هذي الارض ، غاسلة عار الظلم ، وعار الخطأ ، وعار ضيق الافاق والصنور .

فالبياتي اذن طبيعي اداء ، ويجيد الحديث مع قرانه من خلال

المألوف المعروف حتى لدى من لا يجيد منهم العد الى العشرة ... والا فمن لا يعرف ان الفيت دلالة رحمة ، وان السحابة دلالة خير ، وان الماء - ماء السماء - خير غاسل لأدران هذي الارض ؟؟ وأجمع الآن - طبعا استدعاء في صورة ذهنية - بشرا من جميع أقطار الارض ، ومن جميع العصور ، ومن مختلف المذاهب والعقائد والديانات ، والالوان واللغات ، وأقرأ لهم : « فلتفسل السحابة - أدران هذي الارض هذي الفاهة » وترجم هذه الفقرة الى لغاتهم المختلفة ، وأخبرني ان بقي أحد منهم ما عرف بعد هذا ان البياتي قد أراد بالسحابة دلالة على صوت الحق ، وانه قد أراد بالأدران دلالة على صراخ الباطل ، وانه قد استمطر السماء عدلا وجمالا وضواها ، لكي تفسل السحابة أدران الباطل ، وأدران القبح ، وأدران الخطأ .. اذن « فلتفسل السحابة - أدران هذي الارض ، هذي الفاهة - ولينهض الموتى من القبور - ولتحرق الصاعقة الجسور - والجثث المنفوخة البطون - فحول رأس القيصر النسور - تحوم ، والأمطار - تفسل جرحك الدفين تفسل الاشجار » .

فالبياتي يستمطر بفت الموتى بعد ان غسلت السحابة أدران هذي الارض ، وبعد ان أحرقت الصاعقة الجسور ، وقطعت صلة الارض الطاهرة بقيصر وبادران ما فات ، وبعد ان أحرقت الصاعقة كل منتفخ بطن من أتباع قيصر ، وحامت تنقر منه وتآكل من رأسه الطير . ويعتمد البياتي التلازم بين القيصر وأدران الارض ومنتفخي البطون والجسور في تركيب صورة أخذها حرفيا من أجل تقربها الى الإذهان ، رغم كل ما في الاداء الحرفي من اعتداء على روعة النص ورغم التلازم الوثيق بين محلية الادب - مكانا وأحداثا وزمانا - والاداء الحرفي : يمثل القيصر ، أولا وقبل كل شيء ، شخصية الطاقةية « وهي شخصية تاريخية رسمت صورتها الشيوعية كفلسفة ، وخطت الثورة البلشفية ملامحها الاخيرة بنجاحها وبتوطيد الحكم القائم حاليا في

روسيا على أنقاض سلالة القيصرية التي سقطت بيد الثوار» .
 وقد وفق البياتي في اعتماد «القيصر» ممثلاً لشخصية الطاغية . . .
 غير اني أرى لو ان البياتي اعتمد «نيرون» لحصل لشخصيته اجماع
 اكبر من الاجماع الذي حصل له حول «القيصر» . . . هذا ان أراد
 البياتي «الخبير» أي ان أراد أن يقول «ولیکن هكذا مصير كسل
 طاغية» ، «فالقيصر» حينئذ أدنى الى خدمة الفرض وأقرب الى
 قضية الناس الراهنة ، إذ ما بقيت لمعارضة أشباه «نيرون» قيمة
 عملية وذلك لاختفاء الشخصيات الواقعية المثلة له . . .

ومهما يكن من امر ، فانا أكثر ما أكون ميلا الى اعتماد الجانب
 الخبيري في الرمز والتمثيل وذلك لان الجانب الإنشائي قد يسوق
 الكاتب - داريا أو في غفلة سواء - الى تفسير القضية وحسبها في
 قوقعة المراتب الضئيلة والمتصفة بروح عملية الأحداث وبأسلوبها
 الجرائدي . . . وما قيمة جرائد الصباح في منتصف النهار ؟
 ولئن خطر في ذهن القارئ هنا شيء عن الالتزام في الأدب والفكر
 والفن وعن واجب الفكر في المجتمع ، فليحضر في ذهنه - مع ما
 يخطر له حول هذه المفاهيم - انني أضع حدودا جادة لتعريف النص
 الأدبي والمباراة الفنية ومذاهب النكر . . . وبداية هذه الحدود عندي
 البراءة ، والتلقائية ، والإندفاع ، في حدود طبيعة الانسان ، وفق
 معطيات يقين العلم ونور الوجدان ومن أجل انسان أقل خوفا وأكثر
 كرامة واستقامة واتزاناً . . .

وحتما لا أحسن لكاتب أن يعتمد الإنشاء المباشر من أجل فصح
 فرد فاسد بالذات ، أو التشهير بأفراد معينين قد يتطرق الى
 شخصياتهم الظن أو تسرب اليهم الإشارة . . . كما ألع على أن يثبت
 في ذهن القارئ بانني لا أستحسن لا من قريب ولا من بعيد ، أن
 يسخر الجانب الخبيري من الرمز لكي يخدم التشهير بفرد أو بأفراد . . .
 ان مثل هذا التشهير يخرج الأدب والفن والفكر من سمواته العالية
 ويهبط به الى مستوى الكفاح الجرائدي الملاحق للمخلصين والمرتشين
 وأهل المفاصد الأخرى . . . فانا حينئذ أعفي الفكر من وظائف القضاء
 وأجهزة الامن والتحقيق . . . لكنني أذهب ، وبتطرف ، الى أن ينصرف
 الكاتب - مصورا - والقارئ - متخيلا - الى هتك ستر النوع الفاسد
 وسواء اعتمد الكاتب الخبر أو الإنشاء في الرمز والتمثيل . . . ان مثل
 هذا لا يسيء الى فرد معين الا بفرد ما يوظف بعض من الناس أنفسهم
 جهة دفاع عن أدرا ن هذي الارض فيهجون بدافع من اخلاص لهذه
 الادرا ن ويدفعهم الاخلاص للفساد الى استعداد جميع الامكانيات
 المنقوصة الشرف على أي شخص يستمطر سخابة لتفسل السخابة
 ادرا ن هذي الارض هذي الغابة . . .

ان هذا اللون من الوظائف قد ساهم مساهمة فعالة في منع عبور
 الفكر العربي الى مرحلة معاصرة من تاريخ البشر . . . مرحلة ما بعد
 المدرسية . . . مرحلة ما بعد النهضة . . . وهي مرحلة تنصف بالتكاملية
 والنسبية والديناميكية والانسانية : معتمدة الانسان مقياسا للتقييم
 بصرف النظر عن أي اعتبار آخر . . . ونسبة ديناميكية : آخذة بمعطيات
 العلم لا بمعطيات السياسة . . .

ان اخذ بمعطيات السياسة - آخذين بنظر الاعتبار طبيعة
 السياسة عموما وطبيعة الحكومات العربية - لا يعطي فكرا ، بل يعطي
 أسلوبا يتخذ أشكالا شتى ويظل رغم تعدد الأشكال بعيدا عن بلوغ حد
 سيادة وسلطان وكرامة الفكر في حدود الحق والجمال والصواب . . .
 وفي حدود العطاء دفقا وكرما بعفوية وبراءة واندفاع : عفوية العقل
 عطاء ، وبراءة الذمة صدقا واخلاصا ، واندفاع حرارة الايمان في قيود
 الحق والجمال والصواب . . .

أما أن ينطلق الفكر من معطيات السياسة فهذا يعني أن يلجا
 الفكر الى اعتماد وجهة نظر خاصة في تعريف أمور معينة ، متطلقا
 للفكر . . . وفي هذا ما فيه من هبوط بالفكر من سمواته الكريمة الى
 أسفل . . . ويفقد الفكر في مثل هذا الهبوط أناس ما كانت كرامته
 الفكر والانسان هما من همومهم الجدية قط . . . لكنهم يتيهون حول

بيوتهم في جميع الأحوال مرتين في كل طواف ويرجعون الى الناس
 بأخبار الاولين والآخرين . . . ومن أخبارهم ان غاليليو قد كفر وأذنب
 وتزندق وانه اعتقد بان الارض تدور . . . ويحرق ان لم يرتد عن
 غيه وضلاله بالنار . . . وواجهه سقراط الحالة بالخضوع لإوامر
 الاثينيين وتجرع السم نزولا عند حكم قضاء المدينة . . . أما المسيح ،
 فقد حمل صليبه ومضى الى حيث صلبه الذين أراد بهم خيرا وكسل
 آثامه انه قال : أحبوا بعضكم . . .

أما المتنبى فقد واجه الحالة مغنيا هجاء ، ومفاخرها باداء ذاتي
 مسرف في حب الذات وعلى مستوى حرفي :
 فؤاد ما تسليه المدام وعمر مثلما تهب اللثام
 ودهر ناسه ناس صقار وان كانت لهم جثت ضخام
 حين يللم البياتي جميع وجوه القضية باداء فيه سخرية ، وفيه
 مرارة ، وفيه استعلاء ، وفيه استهزاء ، وفيه دفاع عن المنطقي الطبيعي
 في حدود حتمية طبيعة الاشياء ، ومعطيات العلم :

« اذا أردتم سادتي أقول
 بان هذي الارض لا تدور
 ولا يقطي نصفها الديجور »
 وهكذا تجد ان المفكرين يختلفون موقفا واداء وسط هيجان أوهام
 وعادات تستمد مقومات قدسيته من طول تثبث الناس بها « كمحض
 أوهام » ومن طول ما ألفوها عادة . . .

ولا أعرف بعد أبي العلاء في تاريخ آداب وفلسفة العرب من أوقف
 جهدا فكريا معتبرا لتعيين مكانته موقفا واداء من أزمة الفكر وصراعه
 ما أوقف البياتي من جهد - داريا بهذا أم غير شاعر - سواء .
 فالغزالي ، وهو حجة الاسلام بجدارته لا ينال منها شك ولا يطرقتها
 ريب ، يخبرنا انه يصنف آراءه الى ثلاثة أصناف :

١ - رأي لكل سائل ومسترشد .
 ٢ - رأي لا يطلع عليه سوى ذوي النباهة والمخلصين والمقدرين
 للفضل والكاتبين للسر .
 ٣ - رأي لا يطلع عليه الغزالي أحدا أبدا ويحفظه سرا في نفسه
 لا يعلمه الا الله .

أما بقية الفلاسفة في الاسلام فقد أجمعوا على ان الفرد الفيلسوف
 لا يستطيع ضمان تعایش سلمي في البيئة الاسلامية الا عن طريق
 ازدواجية الفكر - يفكر لنفسه ولاقرانه بوجه ويواجه البيئة بوجه
 آخر . . . هكذا كان موقف عظماء الفلاسفة في الاسلام ، من الفارابي
 الى ابن رشد . . . حتى لنجد كبيرهم ، وهو ابن سينا ، يبرر ثنائية
 بنية الفيلسوف الفكرية بثنائية الانبياء ، فيقرر جزئيا ما فحواه :

« اني كان للنبي محمد وللنبي موسى مفاتيح العرب والعبرانيين
 بالحقيقة كما هي ؟ » . . . ثم يذهب ابن سينا الى ان الانبياء لاؤوا
 بالتبسيط من أجل تقريب الوحي الى ضعاف العقول من الناس .
 ولا يهمننا من هذه الفكرة الآن الا جانبها التبريري والذي استمد منه
 ابن سينا فتوى تبرر وتجزئ مبسدا الثنائية في شخصية الفيلسوف
 الفكرية ، وتقرر اخلاقية الفكر بوجهين : وجه للحق ، وآخر للمجاملة
 ولرعاة الظروف والاحوال .

أما المتصوفة والاشراقون فقد لاؤوا بالصمت وبالرموز وبالهجرة
 ومفادرة الاوطان عقليا وفكريا وروحيا . . . فهم الغبراء كما يسميهم
 الفارابي ، وكما يسميهم ابن باجه ، وكما يسمون أنفسهم أحيانا . . .
 وهذا يعني انهم قد نفضوا أيديهم من شؤون الدنيا والمجتمع وانسحبوا
 بافكارهم وهاجروا بأرواحهم الى اخبات ونعيم عوالم ما بعد الطبيعة
 الناعمة : « حيث لا يشتعل الانسان في اليم على ظهر سفينة » وبقيت
 منهم بين الناس الجسوم وليست للجسوم آراء في شؤون المجتمع
 والحياة . . . اذن فهم الغبراء . . . ومن هؤلاء السهروردي المتسول
 في حلب والحلاج المصلوب في بغداد . . . وظن ما تشاء .

وآثرت النحلة الفكرية الرابعة دفاعا عن العقيدة الاسلامية
 واصطنعت المنطق وسيلة لتقوية وتوسيع وتحصين العقيدة . . . فكان

من هذا الميدان الفكري استقامة « علم الكلام » وظهر متكلمون من الطراز الاول فيهم المعتزلة وفيهم الاشاعرة ، وفيهم من كل فيلسوف جهة ومن كل متصوف جانب .

« والأرض لا تدور - ولا يغطي نصفها الديجور »

ونشط القصب يشيل مسن العبر ويحط على الكافد ما يضحك الخليفة حتى يستلقي على قفاه من الضحك ، وما يبكيه حتى تخضل لعينه من السدم ، وما ان اغضبته منه شيء أمر السيف ... أو السجن ان رق للخليفة قلب أو لان منه جانب ...

وكرت عطايا السلطان الى كل مداح هجاء ، وكرت دفع الخليفة لكيس الليرات وصره الدنانير الى أصحاب الامناع والمؤانسة : أولئك الذين يقولون أو يكتبون للخليفة أشياء لطيفة خفيفة تمتعه حتى يستلقي على قفاه من الضحك ، وتؤنسه حتى تهتز لعينه من الانس والطرب ...

وازمة الفكر العربي تكمن في انسياق عملية غمس القصب في العبر وتمشيته على الكافد وفق مميزات السياسة ... ان هذا قد يعطي الحكام ، في فترة معينة ، امانا وطمانينة ودعاية حسنة ، تسكت المعارضة ، وتكثر المؤيدين والانصار ... لكن ما قيمة كل هذا ان غابت عين الحاكم ؟ ما قيمة دعاية وبأسلوب جرائدي تهديدا لحدث وفسق مشيئة سلطان ان تقاعد السلطان أو شاخ أو مات ؟ أو قل ... ان أعفي من المنصب أو استقال ???

واستوحى النبي السحاب بين يدي كافور في قصيدة ملهمة حتى تناثر الجمان :

« تزيد عطايها على اللبث كثرة

وتلبث أمواه السحاب فتنصب »

وهي قضية عطايا وقضية استجداء بأسلوب بليغ - والبلاغة كانت وسيلة استجداء ووسيلة ترية عن النفس ووسيلة امتناع ومؤانسة في قصر أكثر من كافور وفي بلاط أكثر من سيف دولة .. لكن ماذا ؟ - مات كافور ومات النبي وانقطعت المطايا الا عطايا من وارثي خصائص كافور الى وارثي شمائل وسجاي النبي ... والباقيات الصالحات في سموات الفكر لا لاستيحاء السحابة بين يدي كافور بل بين يدي الحق :

و « لنقرأ الكتاب بالقلوب منقبين في حواشيه عن المكتسوب والمحجوب » .. « أينها النجوم ، بابل تحت خيمة الليل الى الأبد - تعوي على اطلالها اللذاب - ويملا التراب - عيونها الفارغة الحزينه - بابل تحت قدم الزمان - تنتظر البعث ، فيا عشتار - قومي امثلي الجرار - وبللي شفاه هذا الاسد الجريح ، وانتظري مع اللذاب ونواح الريح - ولتنزلي الامطار في هذه الخرائب الكثيبة .. يا بابل العبيبة » .. « مولاي : لا غالب الا الله .. ولتحرق الصاعقة الجسور - والجثث المنفوخة البطون » .

وهل في الاسماء ما هو ادنى واقرب الى المنتقمين من اسم «نفخة» وانتفاخ البطون ??? جتما لا ، فمشاهد الحر رقيق خبز طاهر ، والا فحوج ليلة وتكشف بطون .. وليست للحر بطن ، تق ! وللارذلين بطون ما امتلات قط ولن تمتلئ حتى ولو صبت فيها جميع شطوط السحت .. ارايت الان كيف اجاد البياتي تسمية المنتقمين ؟ اتباع القيصر ؟ والمطبلين في مواكب الجهل الاكبر ؟ والذين تفتح افواههم اللامجدية ليرة ؟ ويقلها دينار ؟ ويفتالون الكرامة والانسانية علانية وفي الظهيرة وفي وضح النهار ؟

وتعطر السماء وتفسل الارض وتحيي الرجال . محض صورة مالوفة في اذهاننا عن البعث وعن التلازم الثابت بين الماء ومظاهر الحياة ...

ثم تنزل الصاعقة فتحرق الجسور وبهذا يصور البياتي انقطاع صلة الارض التي غسلت السحابة ادرانها وبعث الفيت موتاها ... صلة الارض الطيبة بماضيها الفاسد الموبوء بنوي البطون المنفخسة وبالقيصر وبالطاغية وبالخطا والخرافة ...

وينفعل البياتي متممصا شخصية الخيام ومتخذنا من هذا النقص حماية وغطاء ومعطيا ادبا يجاوز المحلية فكرا والخرافية اداء الى اجواء انسانية تألفها ذهنية الانسان بما هو انسان وبصرف النظر عن اي اعتبار طارئ ... ومجاوزا من خلال تقمص شخصية الخيام حدود ما يصدق على افراد جيل في زمن محدود واحداث معينة الى ما يصدق على جميع افراد كل جيل وفي جميع الاحداث وفي كل زمان ومكان اطلاقا . ولنقرأ افراح البياتي واستبشاره بقوس قزح وقد راق الجو وزالت العاصفة وخدمت الصاعقة :

« مولاي لا غالب الا الله

فآه ثم آه

مملكة الموتى على اسوارها الحراس

يرتق النعاس

عيونهم ، فلتفتح البوابة

وليدخل الغالب والمغلوب

فالفجر في الدروب

عما قريب ، يوقظ الحراس

ويقرع الاجراس » ..

وعند هذا الحد اريد من القارئ وقفة فيها شيء من تريت وروية ، واريد منه ان يربط في هذه الوقفة « فتح البوابة » و « الفجر في الدروب » و « قرع الاجراس » و « السحابة » وعلى نحو ما يلي :

مرت فوق الارض الياب سحابة ... واستبشر الشاعر وصلوى استسقاء ، فقيلت صلوات ، واستجيت دعوات ، وجادت السماء بالفيت ، واحيا الفيت يابس الموات واخضرت الارض الطاهرة ، ونزلت صاعقة احرقت جميع جسور عودة الارض الى ماضيها الميت الموبوء بالادران ، ادران الجهل والخرافة والخطا ، وادران القبح والظلم وضيق الافاق والنحجر ... وادران البلادة والصراخ والهيجان والتعنت !

وابتسمت الارض اذ ضحكت السماء ورقص على زرقة الافاق قوس قزح : فلتفتح الابواب اذا وتضحك الشبابيك ، ولتقرع الاجراس ... اجراس عودة الحياة ... واجراس اخضرار الارض وسيادة الربيع وعودة الحياة : فالفجر في الدروب (وليدخل الغالب والمغلوب) فالكل آمن والطمانينة للجميع ... « مولاي لا غالب الا الله » .

ويلملم البياتي جوانب القضية ملقيا على الصورة الرائعة لونها من مسحة الاساطير الشائعة والتي هي من نوع : وقال الساحر لحاكم المدينة ، او : وقال السحرة للملك ، او : واجمع الكهنة امرهم ... وعلى نحو ما يلي :

« مولاي قال النجم لي وقالت الافكار باننا ممثلون فاشلون فوق هذا المسرح المنهار وان هذي النار الشاهد الوليد في محكمة الزمان ، تصدع الايوان ، واحترقت اوراقنا الخضراء في الحديقة المطار والمندليب طار . مولاي : لا غالب الا الله » . ان المقطعين :

« فلتفسل السحابة - ادران هذي الارض ، هذي الغابة ولينهض الموتى من القبور » .

و « مملكة الموتى على اسوارها الحراس - يرتق النعاس - عيونهم ، فلتفتح البوابة - وليدخل الغالب والمغلوب - فالفجر في الدروب - عما قريب ، يوقظ الحراس - ويقرع الاجراس » من « الذي ياتي ولا ياتي » محض ترجيع اصداء للمقطع :

« نبع جديد ... نبع تفجر في موات حياتنا - نبع جديد - فليدفن الاموات موتاهم وتكتسح السيول - هذي الابريق القبيحة ، والطبول - ولتفتح الابواب للشمس الوضيئة والربيع » من اباريق مهشمة : المجموعة الثانية من بواكير الشاعر بعد «ملائكة وشياطين» . وهذا لون من شعر يثير في النفس حزنا أو ألما لكن لا يذكي نار حقد او جنوة ضغينة ...

ويشير في اعماق احساسا بالتعاطف والرحمة ، ويلقي على

جوارح الانسان وملكانه مسحة من هدوء وظلالا من سكينه ومسحة من روية وبرود عقلي ، في حدود امكانيات الانسان طبيعية ومنطقية - وهذا هو الشمر ... وهذا هو الفكر : محاولة تحديد موقف من اجل سعادة الانسان لا من اجل الاساءة الى فلان ، او الف فلان ..

ثم - وفي خاتمة هذه الفقرة - هذا لون من شعر تقرأه هادئا مطمئنا ، ساكن الاوصال صافي الذهن ، فيطهرك وينقيك ، ويقويك على الشدة ... ويقويك باحساسات نبيلة عميقة ، وبتأملات ذكية فاحصة مخصصة في سبيل حل صائب بأسلوب حكيم ، من اجل حياة احسن في عصور ما عادت جاهلية ، ولا اموية ولا عباسية ... في حياة معاصرة تعتمد برود الذهنية فلسفيا ، وصمت دأب الملاحظة والتجريب علميا من اجل التعرف على قوانين الطبيعة وتذليلها فالحضارة صراع بين الطبيعة والانسان ، وان الانسان لا يحقق حضارة الا بقدر فهمه للطبيعة وتطويعها عن طريق اكتشاف قوانينها ...

ان عالما في مختبر فيزياء او كيمائيا ينقطع الى مباحث في الذرة اقوى من جميع سكان هذا الكوكب جنودا مشاة او على ظهور الخيل ... وان مكتشف قوة البخار اقوى من جميع من ركب الحمير والبغال والفيلة والابل والخيول الطهمة ... وان قاطرة واحدة اكثر كفاءة من جميع ابل الصحراء وخيول العرب الطهمة وفيلة الهنود .

اجل تبدلت الدنيا وتطور كل شيء وتبدل ((صارت اللعبة اخطر)) وان فكرة صائبة اقوى في مجال التفسير من جميع الخطب الطائشة الهوج ومن جميع الخرائد الصارخة المستصرخة .

ولكل فترة من حضارة البشر طابع واسلوب ، وطابع هذه الفترة فلسفة تأخذ بمعطيات العلم ، وفكر يستمد مقوماته من هذا اللون من الفلسفة ، وفن - بما فيه الشمر - يعايش هذا اللون من الفكر ، وهذا هو اسلوب الشعر الحديث وكما يمثل البياتي والسياب في العراق . اذا فليست القضية قضية عروض وقضية وزن وتفعيلة وقافية، حتما لا ((صارت اللعبة اخطر)) و ((لتفلس السحابة ادران هذي الارض ، هذي الغابة)) فهذا شعر الحاضر المنحصر ، وشعر روح العصر ... عصر تطوير وتنمية ضمير فردي في اطار حاسة اجتماعية نبيلة ... عصر من عصور حديثة مهد لها ديكارت والديكارتون ففصلوا الفلسفة من اللاهوت ، ورفع سبينوزا في مرحلة التمهيد راية حرية التفكير وتسامح الفكر ... الراية التي حملها جوتييه وكوليردج وشيلر وبقية الرومانتيكيين الانسانيين ... وهو عصر من عصور مهدت لها الفلسفة الحسية التجريبية متمثلة في عظماء منهم جون لوك وباركلي وديفيد هيوم ... ثم هو عصر من عصور مهد له رائد المادية الميكانيكية في العصور الحديثة ... ونريد به توماس هوبز .

ثم هو خلاصة عصور بدأت منهجيا وبدأت بمحاولة جديدة برهنت جدارة ونجاحا ، في تقويم العقل ، واصلاح المنطق ، وتوطيد مناهج نقدية توجيهية في الفلسفة والعلم والفكر عامة ... وهذا يعني ان هذا العصر خلاصة عصور ينتظمها منهجيا تأملات ديكارت ومقالته في المنهج وفيونومولوجية هيغل ، ومقالة جون لوك في اصلاح الفكر الانساني ، واوركانون بيكن ...

وخلاصة عصور حديثة اهلته المدرسية واقامت المنهج على معطيات فلسفة الاغريق وصدرت بالفن (مقالة ورواية وشعرا ونحتا ونقدا) وبالحياة (مجتمعا وسياسة واخلاقا) من اصول اغريقية مساوقة معطيات علم وفلسفة مرحلة ما بعد المنهج ...

وانتظم المنهج خط الفكر في وحدة انسانية وفي موكب كلاسيكي مهيب من هوميروس حتى سارتر وايليو .

ويحاول البياتي وسط ضجة صعوبات مذهلة ان يدخل صف الكلاسيك المهيب وان يدخل معه العلاج والمعري والخيام ...

فليست قضية التجديد اذا بقضية عروض ووزن وقافية وتفعيلة ... لا . انها قضية تحديد موقف ، ومواجهة عصر ، والاخذ بيد انسان . انها قضية تجديد فكر من اجل حياة جديدة ، وقضية تجديد حياة من اجل فكر جديد ، وقضية بعث الخيام يحكي للمعاصرين سيرة ذاتية ..

سيرة خيام يالفه الناس في بغداد وحلب وبيروت ، كما يعرفه الناس في لندن وروما وباريس ، وكما يستأنس به الهنود والروس واهل الصين ، وكما يالفه الانسان المعاصر ... الخيام حقيقة ، والخيام اسطورة ، والخيام بين بين .. والخيام صاحب طريقة ومنتج سبيل حياة واسلوب عيش وفكر ... الخيام اسطورة ، والخيام متلاشيا عند حد تداخل الحقيقة بالاسطورة : حد تلاشي الواقع الراهن بالتصور وبالخيال .. الخيام الفيلسوف الرياضي ، الحكيم ، الفلكي ، الطبيعي ، الشاعر التقني الورع ، الخليع المتهتك ، وكل شيء ، وكل ما يخطر على البال بين بين ... بين الاسطورة والحقيقة ، حيث بين الولاية والزندقة شعرة ، وحيث بين الايمان والاحاد اقل من شعرة ، وحيث بين المعرفة حتى مرتبة الكهانة والجهل حتى درجة البلاهة لحظة من تصور او عشر معشار لحظة من خيال ، وحيث الخيام فكرة تستدعي فكرة ، وشخصية تستوحى شخصية وتتقمص شخصية ، ويتقمصها شاعر معاصر ليفترق بهذا التقمص من روح العصر خطوة ! . وحيث بين ازل الازال قدما في لانهاية البداية ، وابد الابد مستقبلا في اللانهاية ، محض فكرة تخلط الشطين في خليج ، والخليجين في بحر ، والبحرين في محيط ... انسان ولا غير انسان ... انسان ولا غريب في طبيعة السماء على الانسان ، ولا غريب في طبيعة ما على الارض ، وما في الارض ، وما بين السماء والارض على الانسان ، وعلى البياتي والخيام ، فكل ما هو انساني طبيعي ، وكل ما هو طبيعي انساني ، وكل ما هو انساني منطقي - في حدود حتمية ان لا منطقية ولا معقولة الا للفكرة المنسجمة مع حتمية الطبيعي الصرف في تجربة الانسان وفي تجربة اختلاط الشطوط في الخليج ، والخلجان في البحر ، والابحر كل البحار في المحيط ... وماء الامطار واحد قبل ان يلامس المطر الهواء ، وقبل ان يلامس المطر الارض ((وذن ما تشاء - فباطن الاشياء ظاهرها - وظاهر الاشياء باطنها وذن ما تشاء ...)) .

لا مت يا خيام ... لا مت يا هابيل يا قابيل يا ادم يا انسان .. لا مت يا ايلول يا ايار يا نيسان ... والخمر في الضنود ... والنار في الاوراق في الازهار في الاغصان ... ((تبادل النهران مجريهما واحترقا تحت سماء الصيف في القيعان)) واختلط الشيطان يا انت يا هابيل يا قابيل يا ادم يا خيام يا انسان ... لا مت يا خيام :

« فاليوم اصبحنا كبارا ايها الزورق
وامتدت الافاق حتى اخر الدنيا
وامتد نهر الشيب في الصدفين والفرق »
فلترجع الايام يا خيام :
« هرمت الف مرة وعاد لي الشباب » .
ولترجع الايام يا خيام :
« القمر الاعمى بطن الحوت
وانت في الغربة لا تحيا ولا تموت .
نار المجوس انطفات »

فاوقد الفانوس - اموت في كاس حليب ساخن ... قالت ، ومدت يدها : اهاوك وابتسم الملك ... عائشة ماتت ولكني اراها مثلما اراك - قالت ، ومدت يدها : اهاوك وابتسم الملك - فلتمطري ايتهما السحابة ايان شئت ، فقدا ، تخضر نيسابور - تعود لي من قبرها المهجور - تمسح خدي وتروي الصخر والعظام - ياتي ولا ياتي ، اراه مقبلا نحوي ولا اراه - تشير لي يدها .. » .

وفي روعة هذه الاجواء يستحى البياتي الموات بدعاء ضمن حدود الطبيعي المألوف في حدود الحياة .

« الميت الحي بلا زاد ولا معاد - بنفخ في الرماد - لعل نيسابور - تخلع كالحية ثوب حزنها وتكرس الاصفاذ » ..

ثم تبدأ سيرة الخيام الذاتية باداء بياني رائع وشاعرية مذهلة .. وتبدأ السيرة بالمولد حاكية قصة الطفولة :

« ولدت في جحيم نيسابور
قلنت نفسي مرتين ، ضاع مني الخيط والمصفور

بتمن الخبز ، اشترت زنبقا

بشمن الدواء

صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة

لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة ... »

فمن اشترى قط بتمن الخبز زنبقا وسهر جانبا حتى مطلع الشمس ؟ من جرب هذا قط ؟ من لا عاش من ما جرب أو فليكن ما شاء ... صخرة ... قطعة حجر . أو فليجرب ... أو - وعلى اقل تقدير - ليتصور اذ ان مثل هذا التصور من مستلزمات تقدير صورة ادم ، هابيل قابيل أو بياني ، أو أنت ، أو خيام يشتري بتمن الخبز شدة ورد ، أو وردة واحدة ، أو وردتين ، أو زنبقة أو زنبقتين ، أو شدة زنبق من نرجس أو سوسن ، يشي بها عشية فترتمش لها عند الباب في غمرة الفرحة كفان ، وتبسم لها نجمتان ، وترقص من فرط ابشر خيوط الفستان قوس قزح طريا مرتين ... وتبتل ، قبل الموت عطشا ، شفتنا شهيد العطش الاكبر ، بقطرة من ماء فرات أو قزحيتين ، ويموت حسينا ، نمطا ممثلا لافلاطون والمسيح والحسين ، ومثلا أعلى لاولئك الذين ماتوا عطشا - ان حرفيا كما مات الحسين او مجازا كما مات افلاطون وسقراط والفرح مسيح والفرح حسين ... ممن صاغوا بتمن الخبز تاجا للمدينة المؤلة والمملكة الفاضلة فمثلهم البياني - اداء - في سيرة الخيام - رمزا :

« بتمن الدواء

صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة

لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة »

ولهذه الصورة مستويات دلالات كثيرة :

1 - منها المستوى السايكو - اجتماعي ، المتمثل في الرغبة في مستقبل افضل وفي النزوع الى حياة احسن .

2 - ومنها المستوى الاخلاقي ، القائم على المستوى السايكو - اجتماعي ، والمتمثل في انكار الذات في الحاضر من اجل حياة اكثر عدلا وجمالا وخيرا في مملكة فاضلة ، لاجيال صاعدة ، في نسف حياة شجرة المستقبل ... انكار ذات تحترق لتضيء للغير ... وتموت عطشا لتروي عطش الغير ... وتموت بملء الارادة فناء من اجل حياة افضل لانسان اقل خوفا واكثر كرامة واقوى عقلا وانقى ضميرا فسي المملكة الفاضلة السعيدة البعيدة ... والصاعدة في غيب نسف شجرة المستقبل الامثل .

3 - ومنها المستوى الحرفي فلسفيا ، المتمثل في جمهورية افلاطون ومدينة الفارابي الفاضلة وفي جميع النظريات الفلسفية المنطوية على تخطيط سياسي عبر حدود طاقة وامكانيات الحاضر في التطبيق .

4 - ومنها المستوى الروحاني ، المتمثل في مملكة يسوع في السماء ومملكة المتصوفة في معارج القدس وفي جلال الحضرة الربانية .

5 - ومنها المستوى العملي في الحياة اليومية ، المتمثل في العالم في مختبره ، والروائي خلف مكتبه ، والشاعر في تجربته ، والفلاح في الحقل والعامل في المنجم ... وعدد ما شئت من صنوف المنتجين باخلاص ، والذين يعطون اضعاف ما يأخذون ... انهم جميعا يساهمون في صنع تاج للمدينة الفاضلة البعيدة .

6 - ولهذه الحضارة - حضارة الانسان الراهنة تاج ... وهي وبحكم حتمية التطور نحو الاحسن - وبالرغم من عيوبها الكثيرة - حضارة فاضلة اذا ما قيست على سبيل المقارنة بالحضارات السالفة ... لكن وراء هذا التاج هذه الحضارة الرائعة ، انسان ابهر وعاد - رغم دوار البحر واشتداد العواصف - سنبدا جريئا وقال : حرك الجامد بقوة البخار يتحرك ، وكن سييدا على سيارات وقاطرات الارض ، وعلى طائرات السماء . ووضع تحت تصرف هذه الحضارة قانون حفظ الطاقة وقانون القصور الذاتي وقانون الجذب العام والنظرية النسبية ، وخلص الناس من ربكة افلاطون وارسطو في حقل الرياضيات والعلم الطبيعي ... وسرد على اذهان الناس قصة التطور

العضوي والنشوء والارتقاء واصل الحياة - وتمثل هذا الانسان في واط وغاليلو ونيوتن واينشتاين ودارون - قد ساهم كل من هؤلاء في صنع تاج هذه الحضارة - هذه المدينة الفاضلة التي حلم كل منهم بها طويلا لكنها كانت حينذاك بعيدة بعيدة... وهذا هو المستوى التاريخي لقول الخيام في سيرته الذاتية :

« بتمن الخبز ، اشترت زنبقا .

بشمن الدواء

صنعت تاجا منه للمدينة الفاضلة البعيدة

لامنا الارض التي تولد كل لحظة جديدة »

وتوسع في مدلول هذا المستوى التاريخي من المعنى ان شئت ، واصرفه - ان راق لك - ينصرف الى اي من الذين ساهموا جوهريا في توطيد مفاهيم هذه الحضارة الرائعة : سقراط ، افلاطون ، ارسطو ، ابيقور ، بيكون ، هوبز ، ديكارت ، لوك ، هيغل ، ماركس ، وليسم جيمس ، دانتي ، شكسبير ، جوتيه ، سرفانتس ، تولستوي،تهوفن، فاكتر ، مايكل انجيلو ... وعدد ما شئت وما راق لك وطول قائمة الاسماء ما استنظمت ، لكن لا تدخل في القائمة اسم تاجر أو اقطاعي أو خليفة أو ملك أو سلطان أو وزير أو شبه ملك أو شبه وزير ... لا ... ولا توما الاكويني مثلا : رجاء لا ... ولا نابليون ولا نيرون ولا قيصر ... وادخل الخيام في القائمة - فقد رفع البياني قدره - واكتب في القائمة اسم البياني وباعجاب وفي موكب المبدعين من الشعراء ...

اريت الان ؟ هذا هو الادب المتكامل ... ادب تخرجه من المحلية الضئيلة الى آفاق العالمية ، عبر حدود الزمان والمكان واللغة والدين والمعتقد ، صفة تعدد الظلال المتمثلة في تعدد دلالات مستوى المعنى للنص . اذا فليست القضية قضية عروض وبلاغة ونحو وصرف ... لا !! انها قضية حياة وادب وفكر ، وقضية النسخ الصاعد في شجرة المستقبل الطاهرة الطيبة ... اجل : « وتغير بعد هذا كل شيء - صارت اللعبة اخطر » .

ان تمويج قضية الشعر العربي المعاصر في مناقشة التزامه او عدم التزامه القافية الواحدة ، ومناقشة توحيد التفعيلة في القصيدة او تنويعها ومدى تجاوز القصيدة اكثر من بحر ، مناقشة طييفة ولا تعطي قدر قشة في التقييم الفكري وفي تحديد موقف لانسان معاصر في حضارة تتصف بالروعة والفخامة وجلال القدر ...

والشعر اداء فني متكامل موزون ، والتزام الوزن ضرورة وتفعيلات الشعر الساندة رائعة رائعة ، وان العبارة الشعرية - كالعبارة الموسيقية - تأتي في ذهن الشاعر الاصيل موزونة وفي قالب تفعيلة ، واللحن او النغم اسبق في الوجود من النونة المكتوبة ، ومفاتيح البيانو اسبق في الوجود من مفاتيح البيانو الخشبي - انه صنع وفق نمط المفاتيح السابقة في الوجود ... هذه - واقرب هذا بثقة فيها عناد - كل قضية الشعر العربي المعاصر والتفعيلة ... رغم كل ما قد يشير بعض الناس من زوابع في فنجان فارغ . والقضية - اعيد - وبتكرار حتما غير ممل - قضية حياة وادب وفكر ، وقضية النسخ الصاعد في شجرة المستقبل الافضل ، وقضية انسان مفكر عليه ان يحدد موقفه من نفسه ومن الافكار في ذهنه ، ومن الناس من حوله ، ومن الذين سبقوه في التاريخ ، ومن الافكار والتصورات والادغام في اذهانهم ، ومن الاشياء من حوله ... وانها قضية انسان معاصر في حضارة تتصف بالروعة والفخامة وجلال القدر ... حضارة لم يعد فيها الشعر نظما وكلاما موزونا مقفى وابوابه وكل موضوعاته الفخر والهجاء والنسيب والرثاء والمدح ، ولم تعد عظمة الشاعر قائمة على وقوف واستيقاف ، وبكاء واستيحاء ، ونعي الحبيبة والديار في نصف بيت واحد اذ ما عادت الدنيا قائمة على قرن نور ... لا ، انها تدور رغم ان في هذه الحقيقة شكا بين اكثر من نصف المعاصرين العرب مقدر ان نسبة الامية تبلغ حد نصف السكان على اقل تقدير ! وبين حد الامية وحد الثقافة ظلال كثيرة متدرجة في المتعلمين

« البشر الفانون في مدينة الحديد والاحجار

تسلقوا الاسوار

ونصبوا الشركاء»

وهذا اداء سهل ميسور الفهم ، وبسيط بساطة « نصب الهوى
شركا علي فصادني ... » مع فاروق بسيط وهو ان البياتي - او قل
ان شئت الخيام - يريد خروجا من المدينة الجاهلة ... او من الكهف
- ان شئت لفة فلسفية افلاطونية ومستوى شاملا ... لكن البشر
تسلقوا اسوار المدينة المفلقة ونصبوا الشركاء وبقي الخيام محبوسا ،
وكلما هم بخلاص من مدينة الظلمة وتطلع الى مدائن النور صده الحراس
الذين نصبوا الشركاء خلف اسوار المدينة متربصين لكل من قد تحدنه
همته بفرار من الكهف وبالتحاق بدنيا الاشراق والنور ...

لكن ... وفي غمرة اليأس ووسط طفيان امواج القنوط :

« قالت ، ومدت يدها : اهوالك

وابتسم الملاك

وغاب في الجدار ... »

للم وفي ارتعاشة نشوة الامل الكبرى والرجاء الاعظم ، جاء صدى
او جانب من حوار ، او شيء هو بين بين : من غيب او من عالم شهادة
... او من تكهن ، او من اخبار عن واقع ، سواء ولا فرق . اذ ان
الذين ابجروا بحثا عن مدينة فاضلة قد عادوا وعلى مراكزهم انقاض
مدائن مردولة :

« يا عندليب العاشق الاعمى ، ويا خزائن الاسرار

ابحرت السفينه

تبحث في الاصقاع عن مدينه

لم يقف الشحاذ في ابوابها يوما ولم يسند

على رصيفها جبينه

لكنما السفينه

عادت مع المساء للمدينه - التتمة على الصفحة ٢٨

حتى لا يبلغ منهم وفق هذا التدرج حد الثقافة الانسبة ضئيلة ...
ان هذا يعني - فيما يعني - ان قراء الشعر المعاصر ومنذوقيه
نسبة ضئيلة من القراء العرب بل ومن قراء الشعر ، وهذا ما يحرر
موقف شاعر فذ كاليبائي اذ لا يجد مناصا من التبسط والتسيط من
اجل توسيع دائرة قراء شعره على حساب كمال عمله ، كما لا يجد بدا
من استجمال افراح النشر ... والا فمن يطبق تحمل الحياة تقشفا
على ما تعود عليه بفضة الاف من كتاب ضئيل الثمن فيصبر حتى ينتجز
عملا اخر بمستوى رفيع يرضيه ويرضى عنه ؟

اليس حينئذ « الذي يأتي ولا يأتي » و « سفر الفقر والثورة »
بدليلي عظمة شاعر كبير وسط هذه الصعوبات القاهرة ... وسط
اقلية ضئيلة من القراء ، ووسط عيون الرقابة والرقباء ... ووسط
اناسيد العنتريات الفارغة والتخطب الهوج ومقالات الملق والقباء والنفاق
والاستجداء وفرع الطبول ؟

وفي القضية جانب مأساة الفواص والحمام ، ومأساة شاعبي
يفوص ويفوص ويفوص حتى اقصى قاع البحر ... ثم وبعد العذاب
يرفص الحمام الدر حتى ولو بالمجان .

وفي القضية بطولة شاعر يحفر بالاصابع المجردة نفقا بين بابل
وبيسابور ويسافر وحيدا وسط الليل وضجة الخوف وتحت سماء ما
فيها نجوم ... فالدرب ظلام وبرد ونفق طويل ... ويصل البياتي
بيسابور ويستنطق الخيام حكاية المولد وبداية الطفولة في جحيم
نيسابور ، ويسرد الخيام القصة بتفصيل مذهل :

« ولدت في جحيم نيسابور

نمت على الارصفة الفبراء

اصطدت الفراشات ، وقعت في شرك النور

وسحب الخريف والغابات والدمور

كلمت نجمة الصباح ، قلت يا صديقه

اتزهر الحديقه ؟

وتولد الحقيقه ؟

من هذه الاكذوبة البلقاء

فراشة عمياء»

وهذا رائع مذهل ... اليس كذلك ؟ ... ليس من آيات الابهة
ورفي الامجاد ان ييات مشرد الليل على الارصفة ويحلم في اصطياد
الفراشات حتى اذا ما اشرفت الشمس خرج يصطاد ووقع في شرك
النور في سحب الخريف والغابات والزهور ؟

صورة رائعة ، وطبيعية في حدود المألوف تجرية وحسا ، فانت
حين نهم في اصطياد فراشات في غابة تلاحق حتما الفراشات في النور
ومن زهرة الى زهرة وفي بحر من نور وزهور ولكفي الغيب - والقضية
فضية حظ - والدنيا حظوظ - سحب خريف ...

و « الفراشات » البياتية الخيامية تعني « المثل » في لفة
افلاطونية ، « والمطلق » في لفة هيكلية ، و « الحق » في لهجة صوفية ،
و « نور الانوار » في لفة اشراقية ، و « الحقيقة والعدل والجمال
والصواب » وكل ما هو رائع ويتطلع اليه الانسان الحيات السير نحو
المستقبل السعيد في افكار ولفة الانسان المعاصر ...

وبعد ان وقع الخيام في الشرك : النور يقمر عينه ، وسحب
الخريف تعيقه ، والزهور تنافسه ، رجع من الصيد بلا فراشة . وضع
البياتي كما يضج اي انسان في اي ارض وفي جميع الازمنة وعبر
العصور :

« اتزهر الحديقه ؟ وتولد الحقيقه ؟ اتولد الحقيقه ، من هذه
الاكذوبة البلقاء ، طفولتي الشقية الحمقاء ... فراشة عمياء » .
وكل هذا اداء رائع في التطلع الى شباب سعيد وكهولة متمكنة
وشيخوخة حكيمة مطمئنة وقورة .

« كلمت نجمة الصباح ، قلت يا صديقه

اتزهر الحديقه - وتولد الحقيقه »

وياتي الجواب بدقة وتفصيل مذهلين :

في الاسواق

قصة الحرب القدرة ...

في فييتنام !

اقراها في رواية الروائي الاسترالي الشهير
موريس وست

السفير

كما يقصها سفير اميركي عين فسي سايفون ،
فعاش مؤامرات المخابرات السرية الاميركية مع عدد
من الجنرالات المتأمرين ، وخرج بمأساة شخصية
تجسدت في صراع بين الاخلاق والانتهازية
السياسية ...

ترجمها : نزيه الحكيم

منشورات دار الآداب

البياتي والخيام وحافة الإقذار

— تنمة المنشور على الصفحة ٢٧ —

تحمل فوق ظهرها الشحاذ
مقوس الظهر بلا عيون
الجثث البقورة البطون
تسد هذا الشارع الملعون
متى ؟ متى أينها الشمطاء ؟
ستمطر السماء
وتولد الحقيقة
من هذه النفاية الغريبة !

وصفة المدينة الفاضلة أنها مدينة : لم يقف الشحاذ في أبوابها
يوما ولم يسند على رصيفها جبينه ... مدينة مثلى — لا اسبارطية :
تدوخ الخلق بعسكر وتعلن حربا سنوية شرعية على السكان ... ولا
عباسية يتحدى خليفتها السحب وغذاء الشعب فيها خبز شعير ...
اجل كل شيء قد تغير ... « صارت اللعبة أخطر » .

غير ان السفينة التي ابهرت بحثنا عن مدينة سعيدة في جزيرة
فاضلة ، عادت وعلى ظهرها شحاذ مقوس الظهر بلا عيون — يا خبيثة
البحارة — .

وسدت الشارع الجثث المنفوخة البطون ... والجثث المنفوخة
البطون رمز بياتي يوقفه غالبا — على المنتفعين وعلى آلات الطفلة ...
آلات الاضطهاد والتخريب والارهاب والسلب والنهب والاشقاء والاذلال
.. آلات بشرية : تضطهد وتخوف وترهب وتنهب وتسلب وتشقى الناس
وتذل البشر وتهين كرامة ذرية ادم ... انها الجثث التي يتعهد بها
الفاتحون بالايواء وبالكساء وبالعلمف .. والجثث التي يتعهد بها الطفلة
بالعطايا درهما ودينارا وبالامتيازات القابا مطهمة ومناصب مفخمة
وبالايواء والعلمف والكساء ... اجل انها جثث جنكيزخان وهولاكو
ونابوليون ومراد الرابع وجثث كل سفاح سافك للدم قائد فاتح فخم
الالقب كثير النياشين ... وجثث قيصر ونيرون ... والف قيصر
والف نيرون مجهري طفيف من الذين كتبت حظوظهم في أبراج
السماء ان يتبخثروا في الارض عنجبية وان يذلوا الرقاب ويسفكوا
الدماء ..

ويلوح للخيام ان نيسابور قد هزمت وشاخت وان بابل — فسي
لهجة بيانية — قد يبست وامتمت مآها الاحداث واستنزفت شبابها
الستون ..

وهكذا ، وبعد اليأس من انشاء مدينة فاضلة على نمط مثال مدينة
ياتي به البحارة من بعيد ، عول البياتي وعول الخيام على مطر السماء ،
وعلى سحابة تقسل ادران هذي الارض في بابل وفي نيسابور وانسى
شئت ... عل حقيقة تولد من نفاية غريبة واقرا استنفاها جزوعا
يطلب الجواب من التي شاخت وهزمت (المدينة القديمة) :

« متى ؟ متى أينها الشمطاء ؟

ستمطر السماء

وتولد الحقيقة

من هذه النفاية الغريبة »

فمتى تولد المدينة الفاضلة البعيدة والتي صنع لها الخيام تاجا
بشمن الخبز وبشمن الدواء ؟؟ متى تمطر السحابة داخل السور وتظهر
بابل من الادران ، فقد عاد البحارة وعلى ظهر السفينة شحاذ اعمى
مقوس الظهر بلا عيون ... وبيع اطفالون عيدا .. وعاد قلقامش بحكاية
باردة كتلك التي عاد بها حي بن يقظان .. وعاد السنديباد مقرورا من
البرد ، وعباءة السنديباد وصله من شرع خلقت من كثرة الابحار وطول
مدة الطواف بحثنا عن المدينة البعيدة السعيدة .. فمن يدلي

فراشة عمياء على زهرة ؟ ومن يداوي ذنبا جريحا ؟ ومن يدلي السنديباد
على فراشة ؟ ومن للعاشقات في بابل وقد اشتد الحراس عيوننا على
السور ؟ ومن للغانيات في نهاوند وفي نيسابور ، ومن لهن في صيدا
وطيبة وصور ؟ ومن لهن فحالهن حال !

((قالت ، ومدت يدها : أهواك

وابتسم الملك —

يا عندليب العاشق الاعمى ، وبيا خزائن الاسرار

لم يقف الشحاذ في أبوابها يوما ولم يسند

أبحرت السفينه

تبحث في الاصقاع عن مدينه

على رصيفها جبينه

لكنما السفينه

عادت مع المساء للمدينه

فارغة حزينه))

ودعنا — وبشيء من تجوز — نقول انها قالت ما قالت عششروت
لنيسان : ان فجر الربيع يا نيسان في بابل ، وامطر يا نيسان سماء
بابل على أرض بابل ، واهلا أنهار المدينة وليملا كل نهر مجراه ...
اجل هذا ما تقوله عششروت لنيسان قبل البعث وبعد اليأس من
عودة السفينة بنمط مدينة خصيبة من بحار ما بعد السور ... وبعد
الجفاف المميت .

وان لم يرق لك هذا المستوى الرائع من دلالات المعنى فدعنا نقول
انها قالت ما قال الحمال السذي ما رأى البحر قط للسنديباد : كف
اساطيرك عن البحار يا سنديباد وحدتنا عن شقاء هذي الارض وعمن
بؤس المدينة داخل السور وفي ظلمات هذا الليل الذي تغطي وتفحمت
نجومه ، وهات الحديث عن بغداد .

أم يروق لك أن تحمل دلالة المعنى على ما قالت الإقذار لقلقامش:
ان لا خلود لفان خلف هذا السور ، انما الخلود بذكر حسن للمرء
بعد أن يموت واقفا وعيناه في السماء تطلعا الى الحق داخل السور .

أم ترى صرف دلالة المعنى السى حي بن يقظان وقد عاد بصيرا
من بلاد النور فاتكره عيمان المدينة وسدوا آذانهم عن سماع حديث هذا
الطاريء من سموات فيها شمس وفيها قمر وفيها نجوم ... ولك طبعاً
أن تعتمد على الموهبة ... موهبتك أنت ... وأن تصرف دلالة المعنى
الى أحوال تاريخية واقعية وأن توسع في هذه الدلالة ما أسعفتك
الموهبة وما أسعفتك الثقافة .. وعول على عوالمك أنت في قراءة
الشعر المعاصر ، فالعبارة الشعرية مرآة ، ومرآة الشاعر حتماً
ومرآتك أنت ، ولا تطمع برؤية الشاعر في العبارة الا بقدر ما تطمع
في ملامح من صانع مرآة حين تواجه المرآة أنت بوجهك ...

فالعبارة الشعرية المعاصرة مرآة ترى فيها عواطفك .. وانها
مرآة بلا حدود وانها لا تنهاى الا حيث تنهاى أنت موهبة وملكات
وثقافة .

اجل تبدلت الدنيا وتطور كل شيء وتغير في قبة هذه الحضارة
الرائعة وصارت اللعبة أخطر ، وحان وقت نفص غبار نظريات الاغريق
والرومان من على جبين النقد المعاصر ، اذ لم يعد الشعر الهامسا
للإمتاع — على رأي هوميروس — أو لاستدعاء صوت الآلهة وآداب السماء
الى الارض — على رأي « هيسودوس » — ولم تعد ثمة قيمة لمناقشة
رسالة الشعر بين الامتاع والتسرية عن النفس من جهة ونقل التعليمات
ومبادئ الخلق القويم من جهة أخرى . القضية التي أشبعها النقاد
الاغريق والرومان بحثاً جوع الحقيقة والتي هي — على ما أرى — ان
العبارة الشعرية مرآة لا متناهية يرى فيها القارئ كل ما قد كمن
في نفسه بالقوة ، فتساعده المرآة — كمرجع — على ظهور ما كمن في
النفس الى وجود فعلي ، يحتوي على كل ما تثيره العبارة الشعرية
المعاصرة من حقيقة وخيال وظلال بين بين .

ويلوح لي ان البياتي قد أراد أن يسوي من مادة « الذي يأتي
ولا يأتي » مسرحية تحكي سيرة الخيام الذاتية ، غير ان مشروع المسرحية

قد ماع وتلاشى في شكل ملحمة وجيزة .. وطبعاً هذا محض تخمين .
وأرى ان طفيان ذات الخيام على فترته التاريخية ، وظيفان ذات
وقضية البياتي على ذات وقضية الخيام ، ساعد كثيراً على انسياب
البياتي في أداء شعري ملحمي تلاشت في انسيابه معالم الشكل
المسرحي بشخصه وبصوره الحركية وبحركته الانفعالية ...
لكن « الذي يأتي ولا يأتي » اعظم وأكثر خصبا من المسرحية التي
كان بإمكانها أن تكون لولا وقوف ما ذكرنا من عوامل غيرت مجرى
النص ومستوى الأداء ، وموعت امكانية المسرحية في نص أدبي رائع
متكامل والبقية على الغير : على مؤلف موسيقى يستلهم ، وعلى كاتب
حوار يستوحى ، وعلى رسام يترجم الحروف الى ألوان وخطوط كما
فعل مثلاً أحمد مرسي ببعض فقرات « سد الفقر والثورة » وكما فعل
آدم حنين ببعض فقرات « الذي يأتي ولا يأتي » ، وعلى مسرح متمكن
موهوب يستوعب ويتمثل ويخرج ، بل وحتى على شاعر وروائي
يستثمر النص ويطور ويستأنف المسيرة ... مسيرة سير الأعماق ،
ومسيرة توسيع الأفاق ، في موكب أدب متكامل في حياة متكاملة ،
وفي موكب عالم الأدب الواحد ، والفلسفة الواحدة ، في عالم فكر
تلاشت فيه الحدود ، وشتت السدود ، وانعدمت المسافات ...
وينتقل الخيام من حديث المولد والطفولة الى حديث عن الليل
فوق نيسابور :

« كل الغزاة ، من هنا مروا بنيسابور
العربات الفارغة

وسارقو الاطفال والقبور
وبائعو خواتم النحاس
وقارعو الاجراس

كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور
وضاجعوا ، وهي في المخاض

حياتنا فيها ، وفي داخل هذا النفق المسدود
رواية مملّة مثلها أحرق أو مجنون ... »

إشارة صريحة الى الاسكندر وهولاكو وجنكيزخان ... والى الفجر
والنتار والمغول ، والى الغزو الاوروبي الحديث ... اليس كذلك ؟؟
أم بنا حاجة الى شرح وتفصيل ؟؟
أذن ، وفي حدود المعنى الحرفي التاريخي الذي تتضمنه هذه
الصورة ، فالخيام يعيد أمام ناظريك صورة عربات فاتحين تعاقبوا
على نيسابور ... انها عربات الاسكندر وهولاكو وجنكيزخان ...
فجميعهم مروا بنيسابور .. بفارس .. ببابل وبكل مدينة على خط
مسيرة العربات ...

وتوسع ان شئت ، وتشبث بدلالة الرمز بعيداً عن المستوى
التاريخي للمعنى ، واصرف العربات الفارغة الى الاسكندر وهولاكو
وجنكيزخان ، بما هم أنماط ... أنماط فاتحين وأنماط غزاة ، مثلما
نابليون وهتلر ومراد الرابع أنماط غزاة ، يمثلون الغزاة نوعاً ...
وتوسع في مدلول نيسابور ، وجاوز بها حدود فارس ، وحدود
آسيا ، واصرفها الى مدينة نمطا للدلالة على البلد المستباح غزوا ...
وجرد أخيراً المعنى من دلالاته الحسية واستظهر : « كل الغزاة
من هنا ، مروا بنيسابور » ، تجد انها عبارة تمتد حتى آخر الدنيا
ظللاً للتعبير عن حالات لا نهاية لتعاقبها على الانسان في نفسه وفي
الناس والاحوال ، والقرى والمدائن والاقطار والعوالم من حوله ...
أجل ! « كل الغزاة ، من هنا ، مروا بنيسابور » مروا بوهران وطهران
وفي بغداد وفي بيروت ... ومروا بكل مدينة .

ويضع البياتي أمام ناظريك صورة الغزو الاوروبي الحديث ،
مستعيراً للغزاة أسماء من طقوس الكنيسة ، ومن قرع النواقيس
بالذات : « وقارعو الاجراس » وهي تسمية ملائمة .
والحياة في نيسابور « رواية مملّة مثلها أحرق أو مجنون » ...
محض رواية تنميش المشاهد من شدة السأم والفضح والشعور
باللاجدوى ... فالحياة في نيسابور ، وبعد أن بصق كل الغزاة في

وجها المجدور ، محض حياة في نفق مسدود ...
أليست الحياة اذن برواية ممسلة ان عاشها الانسان في نفق
مسدود يتصف بالانغلاق والظلمة والرتابة واللاتجدد ؟
وانتخذ - ان راق لك - بيروت أو باريس أو دمشق أو صور أو
صيدا أو الشام أو بغداد أو أثينا أو ناهوند أو طيبة ... أو أي
بلد ، وكما يتلادم مع الزمن والحدث والمزاج ، مزاجك أنت ، بديسلا
عن نيسابور ...

أما ان شئت غضبة كبرى فاتخذ الدنيا بديلاً ... وان كنت من
بيروت فاقراً : « كل الغزاة ، من هنا ، مروا على بيروت » ...
واقراً مع هذا شعر خليل حاوي :

« نحن في بيروت مأساة خلقنا
بوجوه وعقول مستعاره

تولد الفكرة في السوق بغيا
ثم تقضي العمر في لفق البكاره ... »

أو قل ان أنت من باريس : « نحن في باريس مأساة خلقنا ... »
ويستقيم لك من العبارة الشعرية دواء يشفيك وتتداوى بأصدائه اذ
ترجع أعماق أعماقك الاصداء وتمتد أمامك العبارة مرآة بلا نهاية ،
وترى فيها بقدر ما فيك من اهتمامات وهموم ، وبقدر احاطتك علماً
بنفسك وبالناس والاحوال من حولك ، وبالدينا تاريخاً من قبلك ...
أما ان كنت مثلاً من أصحاب وباء أدب الرفض أو من أتباع أدب
العناة والانسحاق والقلق والقيء والفثيان والسدوخة والضياع ،
فستدرك سبب هذا الوباء وهذه الالوجاع ... وهو ببساطة لانك جبلي
ذكي بريء النفس ونزلت بيروت وفقرات شيئا في الجامعة الاميركية
والتحقت بصفوف المثقفين ، لكن ماذا ؟

« كل الغزاة ، من هنا ، مروا على بيروت »

« كل الغزاة بصقوا في وجهها المجدور » ومنهم أصحاب
النفط ، واصحاب المقارات ، واصحاب البنوك ، والمقاولون ، وكبار
التجار ...

ثم يا مفكر « الرفض » تقرأ وتسمع وربما تبصر - ان كنت مخبراً
في جريدة - وتقرأ وتسمع ما يهين فيك المهوبة والذكاء ، وكرامة
الثقافة ، وسعة الاطلاع وقوة الفكر !

تقرأ وتسمع عن ألف بليد أمي مجنور الوجه ، سمح الطباع ،
تسد سيارته الشارع ويحمل السيارة ... ثم يفرغ حمولة السيارة
ويشحنها بأخريات ...

وأنت أنت منشغل بقصيدة عن الفثيان والدوخة والضياع ...
وترفض ، أيها المثقف الراض ... يا أيها البريء المغفل : - كل الغزاة
من هنا مروا بنيسابور ... مروا على بيروت ...

وتقرأ ، يا فيلسوف الدوخة وأديب الرفض وشاعر الفثيان
واللاجدوى والازمات والقيء والصداع ... تقرأ عن (الفتح : فتح
عشرات الويسكي ... وتقرأ وتسمع عن « الصب » : صب الشيمانيا
على أقسام شقراوات وسمرارات وعلى أقدم حوريات جيه بهن
استيراداً من خلف البحار ومن وراء المحيطات ...

وتقرأ وتقرأ ... وتسمع وتسمع ، ثم تتأزم يا أيها البطل !
وترفض لانك قلق ! ولانك تعي مشكلة العصر وأزمة الانسان وتلتزم
قضية الدهور غثياناً ودوخة وقبلاً . وطوباك وطوباك في الرفض
وبوركت في الفثيان والدوخة والقلق ، فانت مخلوق ظريف ... ذكي
مغلل بريء وتجيد تدويخ نفسك ! فانت قلق يا أيها المفكر العظيم ،
وأنت مفكر خطير ترفض أن تسمع البياتي ، وتسد اذنيك عن صوت
الخيام والانسان .

« كل الغزاة من هنا مروا بنيسابور !

مروا على بغداد ... في باريس ... في بيروت !

والرفض كالقلق ... كالفثيان ... كالدوخة ... كالضياع ...
وباء تسرب الى كتاب في بغداد وفي دمشق من بيروت اذن :

« فلتفسل السحابة

أدران هذي الارض

هذي الغابه ...

ولينهض الموتى من القبور ...

كل الفزاة ، من هنا ، مروا بنيسابور

كل الفزاة بصقوا في وجهها المجدور «

ولنتابع البياتي يحكي لنا بعض جوانب القضية ، بوضوح وبسر ، وبرباطة جاش ذكيسة هادئة مستقرة ، بعيدا عن ميوعة الرفض ، وعنتريات منسحقين يدللون أنفسهم بالدوخة وبالقلق وبالضياح ، مثلما يدلل طفل مهمل نفسه بادعاء ألف وجع ووجع ليحصل على انتباه الكبار .

ومعجزة الانسان ، يقول البياتي ، « أن يموت واقفا » ... لا أن ينسحق ، ولا أن يتعثر ادعاء ... ولا أن يدعي الدوخة دلالا .. وتأتيك أصداء الليل فوق نيسابور ... ونيسابور محض انقاض بعد أن مرت عليها عربات وغزاة وخيول :

« أيتها الانقاض »

دقت طبول الموت في الساحات

وأعدم الاسرى وهم أموات «

والبقية الباقية من المدينة المنذرة ثرثرة فارغة ... ربما عنتريات تبثني بلقيس صرحا من مفردات القاموس فوق بساط تطيره في الريح خطبة متعنتة هانجة ... وهذه ثرثرة لا شك مهلكة ... ويتصور البياتي لسان المدينة الهانجة آلة لقطع خشب تابوت ! أجل يتصورها سببا للموت ... وللاندثار ولسوء العيش ... وان الثرثرة تلتف حول المدينة المتعنتة مثلما يلتف بيت عنكبوت على ذبابة :

« لسانها الثرثار

يقطع فيه خشب التابوت

خيوط عنكبوت

تلتف حول هذه الذبابة «

ويرجع البياتي الى السماء ... الى الغيب والى الفيث فسي المستقبل ... ويستمطر السحاب لتفسل أمواه السحابة عار القذارة في دروب المدينة ، وعار العبارة الفارغة ، والجملة الهانجة ، والفكرة السفيهة :

« أيتها السحابة !!

لتفلسي ذوائب المدينة الثرثارة

وهذه القذارة ... «

وتستجيب السماء ، وتمطر السحابة ، ويرقص على الشفق قوس قزح ألوان الحياة الصاعدة ، ويولد الانسان جديدا ، من زبد البحر ومن قرارة الامواج ومن وجع الارض ومن تكسر الزجاج ، ويسود الانسان الجديد ، فقد تلاشت ثرثرة المدينة المجدورة الوجه ، وانسحب آخر فوج من أهلها ومروا مرور الجرذان على سجاد ... فأومضت نار من خلل الرماد :

« كل الفزاة من هنا ، مروا بنيسابور

على ظهور الصافنات وعلى أجنحة الطيور

البشر الفانون

يحطمون بيضة النسر ، ويولدون

من زبد البحر ومن قرارة الامواج

من وجع الارض ومن تكسر الزجاج

أقدام جرذان على السجاد

مرت ، ونارا ومضت من خلل الرماد «

ويأتيك صدى الحقيقة ، من اللانهاية ، وعند انتهاء الليل ، وقبيل الفجر في نيسابور :

« لنقرأ الكتاب بالقلوب

منقبين في حواشيه عن المكتوب والحجوب

كان علينا أن نضيء النور

في ليل نيسابور «

واصراف - ان شئت وراق لك - نيسابور الى ما شئت مسن مدائن الارض : من بابل وبغداد وأشور الى طيبة وصيدا وصور ، والى لندن وباريس وقرية نائية على الدانوب ... والى كل مدينة من مدائن الارض ومدائن النفس ، والنفس عالم يمتد ويحتوي العوالم مدينة مدينة حتى اللانهاية وقرية قرية .

واصراف النور - ان راق لك - ينصرف الى الفكرة الصائبة والهمسة الدافئة ، وكيف يضيء الخيام الليل في نيسابور وقد اختفى القمر في ثلاث ، ظلمات عماء وظلمة بطن الحوت وظلمات البحر ... ثلاث ظلمات وظلمة الليل وظلمة غربة الخيام وظلمة انطفاء نار الجوس ؟ - ست ظلمات طبقا !! فهل من ست لمحات من نور ؟ ومن يدلي الخيام على فراشة في ظلام أخضر ، ومن يدلي فراشة الليل على شمعة الليل الاخضر المسحور ؟

« القمر الاعمى بطن الحوت - وأنت في الغربة لا تحييا ولا تموت - نار الجوس انطفأت - فاوقد الفانوس - وابحث عن الفراشة - لعلها تطير في هذا الظلام الاخضر المسحور - واشرب ظلام النور - وحطم الزجاج - فهذه الليلة لا تعود ... «

فليتخذ الخيام ، اذن ، نورا لنفسه من وحي عقله ومن صنع يديه .. وليعمل على قدراته ان خائنه طباع الاشياء والموجودات ، وليبحث في ضوء هذا الفانوس عن فراشة في حلقة ليل نيسابور بعد موات النور وانطفاء نار الجوس .. وليبحث عن هذه الفراشة ، في ليل نيسابور المسعور ، مهتديا بنور العقل ، وبدفء همسات الشعر ، في حدود قدرات الانسان الطبيعية والمنطقية ، مستغنيا عن نثار الجوس ، وعن قوة ورتتها النار من غيب غيوب عالم ما رآه عين قط .

واشرب ظلام النور فهو كل البقية الباقية من نور تلاشى ... او قل ان شئت مستوى آخر من المعنى : اشرب ظلام هذا النور رشفة بعد رشفة تبدد ظلمة وتستدعي نورا مع كل رشفة ... واشرب واشرب من ظلام هذا النور وبدد الديجور واعصر الليل وجففه ، وجففه من آخر فطرة ظلمة وانشره على شرفة الفجر ، فالفجر في الدروب ، ويستوي في ذمة الانسان القاهر الكفار والمفلوب ، وحطم الكاس التي شربت فيها من ظلام النور ... فهذه الامسية الجرداء والليلة اللبلاء فريدة من نوعها وحيدة في بابها ولن تعود ... فاشرب ظلام الليل يا خيام ، واشرب ظلام النور يا انسان ، وحطم الكاس التي شربت فيها أزمة الانسان وظلمة الازمان وحصة التاريخ من ظلم ومن ديغور ! وحصة الانسان والتاريخ والايام من بحر هذا الظلم يا خيام .

فاشرب هنيئا حطم الكاسات ، فهذه الظلمة في ليلتك الليلاء لا تعود .. أجل محض خمريات !! لكنها خمريات انسان معاصر في قبة هذه الحضارة المجيدة ، وانها خمريات ... تعتيق الايام بظلمة الديجور .. ويشرب الظلمة انسان وينبلج بعد الليلة الليلاء نور وتظل الشمس طفلة حبيبة من وراء شفيف قميص ليلة جف وجف حتى راق وشف وانبلج

منشورات دار الاداب

تطلب في

الدار البيضاء (المغرب)

من

مكتبة دار العلم

للنشر والتوزيع

٤٠ شارع المكي - الاحباس

تلفون ٦٢٢٠٩

النور وزالت العتمة والاضواء وانتحر الخفاش في بحر هذا النور ..
قد شرب الانسان في ليلة ليلاء ظلام هذا النور وانسحب الديجور ..
وانتحر السيف والسلطان ، وانتحر الدجال والسكر بالجان ، وهلت
عشتار يا أنت يا نيسان ، يا انسان شربت فسي الليل ظلام النور ،
شربت فحط أرضنا القبراء في ليلة ليلاء ... فحطم الكأس التي
شربت فيها أزمة الانسان ... وارتجف الشباك قالت ومدت يدها
أهواك ..

أجل محض خمريات انسان معاصر في قبة حضارة مجيدة تعتمد
الانسان أولا وتعتمد الانسان غاية وتعتمد برود العقل وهذوء التجريب
وكرامة الفكر سورا للانسان وسورا للوطن ... حضارة تعتمد التطوير
من الداخل ... من داخل هذا الانسان ومن تطوير ضميره وعقله
وذوقه بالاحساس النبيل وبالفكرة الصائبة وباللمسة الفنية الرائعة .
أجل محض خمريات ! وخمريات هادئة هامة ما فيها هيجان
ولا فيها تمتنر .

وخمريات ناعمة لا تدك الجبال لنيل الحق بالعزة القساء والعدد
الذي عليه اذا عد الحصى يتخلف ... وناعمة لا تتعنج متعنتة مذلة
رقاب الناس بأن يسجدوا كلما ولد للكرمين طفل على درب السلطنة
الهبوء ، وأن يطيل الجبابرة السجود ألف عام كلما بلغ صبي
الفظام :

اذا بلغ الفظام لنا صبي تخر له الجبابر ساجدينا
وربك يدري ما على الناس أن يفعلوا حين يبلغ هذا الصبي الحلم،
فالرشد ، حتما قد يقف بين يديه من يقول :
« ما كان الا أن جعلتكم مقصدي حتى هوت غرر النجوم على يدي »
فتصفق بغداد قائمة لا الى جلوس فرحا بهذا الذي بلغ الحلم ،
واستبشارا بشاعرية مداح جديد ما جاد الزمن بمثله منذ ألف عام
ويزيد !

وانها خمريات العصر ... خمريات انسان معاصر في قبة حضارة
رائعة كتبت فيها النجوم في الابراج شفاء على كل متعنت الى أن يهدأ،
وعلى كل هائج الى أن يسكن ، وعلى كل قديم الى أن يعاصر ، وعلى
كل جاهل الى أن يعرف .

وخمريات انسانية في قبة حضارة منطورة وسور الوطن فيهما
كرامة المواطن واحترام الحياة وتوفير معيشة احسن لانسان اقل خوفا
وأكثر كرامة وبما هو انسان بصرف النظر عن أي اعتبار آخر .
أجل ... تطورت الدنيا وتبدل فيها كل شيء والمجد اليوم ومن
اليوم والى الابد حتى آخر الدنيا لبرود العقل ، وهذوء التجريب ،
وكرامة الفكر ، وبهذا تقوم أمجاد هذه الحضارة ، على فلسفة وعلم
وكرامة أدب وفن يأخذ بمعطيات الفلسفة بقدر ما تأخذ الفلسفة
بمعطيات العلم ... وهذا لا يتم - أعيد ثانية - الا عن طريق تطوير
الانسان من الداخل ومن خلال تطوير الضمير والعقل والدوق :
بالاحساس النبيل ، وبالفكرة الصائبة ، وباللمسة الفنية الرائعة ..
بخمريات انسان معاصر وبعباد حلاج وبمحنة معري وبحيرة خيام
وبشاعر فد مثل البياتي وبقاريء مثلك ان كنت من المحظوظين ..

لقد مر زمن كان فيه الشاعسر يستنفر العشيرة بقصيدة طيش
من هولها الرؤوس وتقلي من حرارتها الدماء في العروق ، ويهيج أفراد
القبيلة طلبا للكلا أو الارض أو الماء أو الفئام ، والا قل لي - لماذا
اذن يهيجون ؟ وكانت للشاعر وظيفة ضرورية ، اذ انه كان يقوم
بعمليات التهييج استنفارا للقتال ، والفخر ابتهاجا بتطورات النصر ،
وبالمدح مشيرا الى بطولات الشجعان ، وبالتهجاء ناشرا كل مثالب الدنيا
على القبيلة المعادية في جميع مراحل عملياته ، والتي هي عمليات
حربية ومن مستلزمات الحرب قبل أن تكون من مستلزمات الادب .

وحتما كانت للشاعر المستنفر المداح الهجاء المفاخر وظيفية
اجتماعية مرموقة بقدر ما كان الاقتتال العشائري أسلوب حياة
غير بديل ...

وحتما ما كانت حياة البداوة تعطي للقبائل من خيرات البادية

الا على قدر تمرس القبائل بأساليب الطيش والهيجان والكر والفر
وتلميع السيوف وتطويع الخيول ، وحتما كانت الفضيلة للفالسب
لا للمغلوب ، وكانت البطولة للقاتل لا للمقتول ، وكانت الحياة الاحسن
للقبيلة التي تجيد الكر والفر واتارة غبار المعارك كلما طرأت حاجة
وحانت فرصة لفزو أو لهجوم أو لدفاع .

وحتما لا زالت الفضيلة كما كانت للغالب وستبقى البطولة
للقاتل كما سيبقى العيش الحسن للمتضرر ...

لكن الفضيلة والبطولة والنصر لا يمكن أن تنال في قبة الحضارة
المعاصرة بأساليب عنترية .

قال البياتي اذن ودع عنترية العبي جانيا ، فقد مات بطلا ،
وعش بطلا بسواه ..

أما أن تشبثت بأسلوب العبي في قبة هذه الحضارة فستموت
حيا ... أجل مضى زمن القصيدة العنترية وانقضى زمن التهييج
والهيجان ... والمجد للفكرة وكرامة الفكر وللاحساس النبيل والهمسة
الدافة والفكرة الصائبة ... للفكرة الصائبة !

وليتذكر القارئ اننا لا زلنا في حانة الاقدار مع البياتي والخيام ..
حانة ما فيها من أخطل صغير فيقول : « لم يكن لي غد فأفرغت
كاسي ، ثم حطمتها على شفتيا » .

ولا أخطل كبير ليقول :

اذا ما نسديمي علي ثم علي نسلات زجاجات لهن هدير
خرجت أجر الذيل تيهيا كانني عليك أمير المؤمنين أمير
ولا فيها من يقول ما قال أبو نواس :

حتى انشيتولي روحان في جسدي والذن منظرها جسما بلا روح
أو ما قال طرفه :

وما زال تشرابي الخومور ولذتي وبيعي وانفاقي طريقي ومتلدي
الي أن تحامنتني الشيرة كلها وأفردت افسراد البعير المعبد
وليس فيها حتى من يقول :

اشرب فليك هذا ضاع أكثره والليل من عمرنا ان ضاع لم يعد
فهي اذن « حانة أقدار » .. حانة يشربون فيها من ظلمات النور
كؤوسا ويموتون صفر اليدين تحت قدم الخمار في سبيل فجر جديد ..
انهم سكارى ولا كالكسكارى ! انهم اولئك الذين يشربون بشمن السدواء
تاجا للمدينة الفاضلة البعيدة مستعجلين انبلاج الفجر في ليل
نيسابور ...

ولك الآن أن تسأل : وماذا اذن حصل للخيام بعد أن شرب ظلام
النور وحطم الزجاج ؟ رأى الديك حمارا حين اشتد عليه السكر ،
أم انه قد رأى موت القمر الاعمى بطن الحوت ؟ وموت الديك قبيل
انبلاج الفجر ؟ أم اشتدت عليه الليلة من وطأة عهود بائدة اشتدت
الشمس بأقل من سعر الكلفة وأبدت الليسل وخذلت العتمة فرقص
مذبوحا وعرى البساتين من زهر البساتين ؟
أم انها لا هذا ولا ذلك ... وانها محض ليلة ليلاء في حافسة
الاقدار ؟ وان سهما قد أصاب الخيام :

« أصابك السهم ، فلا مقر ، يا خيام
ولتحسب الديك حمارا ، انها مشيئة الايام
الظبي في الصحراء
وراءه تجري كلاب الصيد في المساء
والخمر في الاناء
فصب ما تشاء
بقبة السماء
أو قدح البكاء
في حانة الاقدار
حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار
رفيقك الوحيد في رحلتك الاخيره
لمدن النمل التي تحكمها الارقام والبزوك
يا أيها الملوك

بكم تتبع هذه القيود ؟

فهذه الليلة لن تعود

طارت ، كما طار بنا بساط ألف ليلة

معانقين تحت أضواء النجوم « دجلة »

وزارعين نخلة

فداعب الاوتار

فديك هذا الليل مات قبل أن ينبجج النهار «

والآن أعنيك فكرة عن أولئك الذين يأتون من المستقبل ومن أقصى حدود المستقبل في اللانهاية ؟ ويأتون الحاضر الراكد ... الحاضر الذي ألف مجيء الناس اليه من الماضي ومن الماضي دائما وباطراد ؟؟؟ أعنيك الآن فكرة عن دخول الحاضر من المستقبل ، وعن أولئك الذين يأتون من المستقبل الى الحاضر المشرب بالماضي حتى حد التخدير والنوم المؤبد ؟ أتدرك الآن صعوبة الذين يأتون من المستقبل ويلوحدون للشمس بوردة وبتلات بنفسجات وبست حبات مسك ويلوح لها المرابون الذين جاءوا من عهود باندة برزومة دنائير ويشيرون اليها برفة طرف من دينار وبخففة من ليرة فتشرق عليهم ويظل الذي جاء من المستقبل في حانة الاقدار وفي ليل مات فيه الديك قبل انبلاج الفجر . وما أغرب أطوار الذين يأتون الحاضر من المستقبل بشدة ورد ، وبترجسة واحدة وبعشر بنفسجات ليصنعوا منها تاجا للمدينة الفاضلة البعيدة ؟؟

ما أغرب أطوارهم اذ يحسبون ان الكرامة أولا واذا يحسبون ان صنع تاج للمدينة الفاضلة البعيدة ، ولانمسا الارض التي تولد كل ساعة جديدة يمود عليهم بغير تشريد في صحارى الاضطهاد وممن ورائهم كلاب الصيد لاهثة ومؤملة على الصيد مكافاة الصيد وثوابه لقباً ومنصبا وليرة ودينارا وهاجا ، ووجاهة مستعارة رهن مدى حاجة الصيد الى كلب ..

وكلاب الصيد رمز لطبقة خاصة تظهر في شعر البياتي وتلازمه من بواكير شعره وحتى أطواره الاخيرة ... ولهذا دلالة تفوق بدلائنها الصيغة الحرفية في وضوح الدلالة ومطابقة الطبيعة والوظيفة .. طبيعة ووظيفة كلاب الصيد طبعاً . وقضية الخيام في حانة الاقدار هي قضية البياتي أولا وقضية كل من يرى ان له فيها قضية ..

ان مثل هذه الرؤية تعتمد على مدى احاطة القارئ بجو القصيدة الحسي ، وأعني بهذا الجو الذي عاشه البياتي أو تخيله مكانا وزمانا وأشياء وأحداثا ، ويعتمد على مدى ادراك القضية قبل ان ينقلها الشاعر الى حانة والى حانة الاقدار ثم الى حوار داخلي وأصداء تختلط بهذا الحوار حتى يتساوى على القارئ ان ينفذ الى جو القصيدة كيفما يشاء : على انها حوار يدور في نفس الخيام ويردده لنفسه ، أو على انها أصداء تأتيه من بعيد ، أو على انها خطاب شخص من مديري حانة الاقدار ، ومن الذين شربوا من نور الظلمة ألف كأس وكأس وحتى انكشفت لهم الحقيقة عارية على صرح مسرح الحانسة النهار ، في ليل نيسابور ، وراوا الديك حمارين ، وولنوا وماتوا مرتين ، وأضاعوا الخيط والعصفور ... وتفقهوا في خفايا وأسرار العتيق والجديد من الخمر ، وصار واحد منهم عليما في مفاتيح النيب ومفالق خفايا الاحوال والامور ، وجهذا يستعجل الخيام ان يستعجل الخيام أفراح ليلية : « فالخمر في الاناء والظبي في الصحراء وراه تجري كلاب الصيد في المساء » .

ويؤكد مرید حانة الاقدار ، والذي يبدو انه قد ذاق الخمر جميعا ، وسكر بكلها مرتين - والا فكيف يحق له أن يستنهض هممة الخيام الى شربه ؟ وكيف يحق له أن يستعجل الخيام أن يعب ما يشاء بقبة السماء أو بقدر البكاء بحانة الاقدار ؟ يؤكد الجهد على أن ليس للخيام من رفيق في دربه الى مدن النمل التي تحكمها البنوك سوى خمار حانة الاقدار ... اذن فليشرب الخيام وليشرب وليشرب حتى تكتب له الشهادة تحت قدم الخطار :

« حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار

رفيفك الوحيد في رحلته الاخيره

لمدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك «

وفي مدن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك اشارة صريحة الى الرأسمالية الغربية ، النظام الذي أوقف البياتي شعره على هدمه ... والنظام الذي لو بعث الخيام وراه لما أقره ... نظام « مدائن النمل التي تحكمها الارقام والبنوك » ، والنمل اشارة الى انسحاق وضالة البشر تحت وطأة اقدام سلطة الارقام والبنوك ... كما ان في النمل اشارة الى اللؤم والبخل والجشع والتقتير والادخار ... صفات لا زالت تلازم الانسان المعاصر ، لكنها حتما الى زوال وان طال بها البقاء عيبا مؤسفا في شخصية هذا الانسان الرائع !! انسان مرت عليه قرون وكانت تكفيه فيها من كل خيرات الارض وبركات السماء تفاحة عشاء ويتوسد بعد العشاء حجرا أو كومة حشيش يابس أو أخضر أو حزمة من ليف أو لا يتوسد غير ذراعه ... وينام الليل قنوعا مسلء العينين رضى وملء الجفنين ...

وخرج من الجنة مطرودا ومغضوبا عليه اذ طمع في شيء يخصه دون غيره واذ طمع بما فوق ما يسد الحاجة واذ طمع في أن يدخر قوت الغير من أجل أن يجوع الغير ...

ووقع في شرك الادخار فالعملة فالنولة ... ثلاث ظلمات ... واشتدت عليه القيود مرتين : قيود مصانع أسلحة وبارود ومختبرات علوم الموت تستنزف من دم عروقه وتشرب من عرق جبينه ... وقيود حكومات تسوقه الى الموت ... لكن الانسان أقوى من كل القيود ... اذ لا زال في الناس من - ولو شعرا - من يشري القيود في سبيل تحرير الانسان ومن أجل أن يعتقه من ربقتها :

« يا أيها الملوك

بكم تتبع هذه القيود

فهذه الليلة لن تعود ... »

وهنا ، وبإخلاص ، أجد اني لا أرى في نهاية ليلة حانه الاقدار سوى :

« اشرب فليلك هذا ضاع أكثره والليل من عمرنا ان ضاع لم يعد « فداعب الاوتار

فديك هذا الليل مات قبل أن ينبجج النهار «

« وداعب الاوتار ... وداعب الاوتار

حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار «

ويا للماساة ! مأساة الذي يأتي من المستقبل فيجد نفسه أحيانا موزعا بين :

« معجزة الانسان أن يموت واقفا «

و :

« متمساي سكرة قبل موتي وصياح الاطفال يا سكران !! « وبين :

« معجزة الانسان أن يموت واقفا «

و :

« فعب ما تشاء - بقبة السماء أو قرح البكاء ، في حانة الاقدار حتى تموت فارغ اليدين تحت قدم الخمار «

ويتخلص البياتي من المازق بين الموت وقوفا والموت تحت قدم الخمار في « الطردية » اذ يعود على ما يشبه أن يكون « فاليوم خمر وغدا أمر » :

« مولاي ، قال النجم لي ، وقال لي الرماد

اياك والفرار

أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد

والموت في كل مكان ضرب الحصار

فلنشرب الليلة حتى يسقط الخمار

في بركة النهار «

ويرجع البياتي الى كلاب الصيد والى الظبي الطريد في الصحراء

لكنه يستعير الأرنب المدعور رمزا للطريد بدل الطيبي :
« الأرنب المدعور عبر الفسق الفارق في الضباب ... تنهشه
الكلاب »

ويقع الأرنب المدعور صيدا جريعا عند الصياد ويضج البياتي مفتديا
الحياة في هذا الانسان :
« بكم تبع ، أيها الصياد
شهادة الميلاد ؟ »

وشهادة الميلاد عند البياتي تعني الحياة وتعني حق الحياة .
وأرى ان البياتي قد أفلح كثيرا في اعتباط هذا الرمز ، اذ انه ينقل
اليك بكلمتين « شهادة الميلاد » جانبي القضيصة : جانبها الفرضي
الطبيعي المنطقي الحيواني المتمثل في قدسية حق الحياة المطلق ،
وجانبها الوضعي اللاتطبيعي اللامنطقي اللاحياتي والالانساني والمتمثل
في الاستهانة التهورية في حق الحياة حتى صار هذا الحق شيئا
يعطى ويمنع ... وان خنق روح محض سحب شهادة ميلاد من انسان
أرأيت ؟ اذن لا تعجب حين :

« شيخ العمرة الضرب يفتح الكوة في اكتئاب
ويحج السماء
بنظرة ازدرأ ... »

وهنا أرى ان البياتي قد وفق في اختيار أبي العلاء رمزا
للشخصية المقدسة للحياة بما هي حياة ومن أجل الحياة ... اذ ان
المعروف عن أبي العلاء - في حدود معرفتنا لواقع شخصيته التاريخية -
انه قدس واحترم الحياة حتى في البهائم السائمة وترك بسبب هذا
تناول الاغذية ذات المصدر الحيواني وعاش نباتيا كل عمره ...

ويستطرد البياتي ناديا موت الصيف وغرق النهار في البحيرة
الكبيرة وفي رحلة الطيور ، وكل هذا اداء رمزي سهل التناول ويسير
على الفهم ... فالصيف دليل خضرة والخضرة دلالة حياة والخريف
دليل اصفرار وذبول وتساقط الاوراق ، وكل هذا دليل موت حريفا
وطبيعا وحسبا في مالوف حياتنا ، كما الصيف والخضرة دلالة حياة
حرفيا وطبيعا وحسبا ... حتى تسوشك هذه الرموز أن تكون اداء
بديها لا يستحسن شرحه الا لواحد ما رأى صيفا ولا خضرة ولا
خريفا ولا تساقط اوراق ؟ ومن عسى هذا أن يكون ؟ ليكن غيرك !
فأنت حتما تعرف ان الطيور لا تهجر الانح الملائم ولا تهجر الامن
ضيق طقس الجو وفي رزق الارض ... وتعرف حتما ان الأرنب المدعور
دلالة على الرعب والخوف ، وتعرف حتما الصياد من كلاب الصيد ...
أم ترى ان بنا حاجة الى حفنة من جمل فارغة نسب فيها ونشتم ،
ونحق ونتمنر ، ونصرخ ونستمرخ ، ونهيج ونحقد ، ونسب العنكب
الاسود والابيض والحصان الاشهب ليستوي لنا من كل هذا أدب التزام
يصعد الفكر ثوريا تصعيدا تشيب من هوله الغريان ويشيب من بلوغه
مستوى المسؤولية كل رضيع ؟؟

لا ... سوف لن نلتزم قضايا تصعيد الفكر الثوري في مستوى
مسؤولية الصراخ الحائق ومسؤولية الخطب الهوج ، فكل هذا عيب ،
وعيب ما بعده من عيب ...

واقرا معي بهنوء اذن من أجل فكرة صائبة ومن أجل برود عقل
واتزان :

« الصيف مر ، والخريف يغمر الغابة بالاوراق
أهكذا ينتحب العشاق ؟
ويغرق النهار في البحيرة الكبيره ؟
وترحل الطيور
والأرنب المدعور
يموت تحت أقدام الصياد »

فأهدأ واغضب برباطة جاش ... ورباطة الجاش تعني السكينة .
فاغضب يهنوء وبعمق ... فالأرنب المدعور قد يكون أنت وقد يكون
أيا من الذين عرفت أو لم تعرف في ظروف ستصير فيها قدسية حق
الحياة محض شهادة تعطى وتمنع !

فأهدأ والتزم عمق الاحساس النييسل ... الاحساس بحب
الحياة ... واغضب بعمق وبصمت وقدس احساسك بقدسية الحياة ..
فأنت تحب الحياة لا شك ، فاغضب كلما وجدت استهانة بحق حياة
انسان :

« فالأرنب المدعور
يموت تحت قدم الصياد
مخضبا بدمه الاوراد
لوركا يجر واقفا للموت في الميلاد
أمامه كانت كلاب الصيد تجري
تنبح للجلاد »
« أهذه الآلام ؟
وهذه السجون والاصفاد ؟
شهادة الميلاد ، يا خيام
في هذه الايام ؟ »

وبعد أن دفن البياتي رأسه في الرمال مثلما تدفن نعامة رأسها
حين الخطر الماحق ، وبعد أن رأى الموت في سراب امتد وامتد حتى
أيقن الشاعر من الموت عطشا ، بدت له وقد أشرف على الهلاك سحنة
فقير العالم الجواب تمد اليه يدا في الظلمة وقسواه على المحنة :
اياك والفرار :

« فقير هذا العالم الجواب
ينام في الابواب
يمد لي يديه في الظلام
ويقرأ التقويم بالقلوب
بحيلة المفلوب :
مولاي ، قال النجم لي ، وقال الرماد
اياك والفرار
أمامك البحر ومن ورائك العدو بالمرصاد
والموت في كل مكان ضرب الحصار
فلنشرب الليلة ، حتى يسقط الخمار
في بركة النهار »

أم ترى ان فقير العالم الجواب قد قوى الخيام على السكر ولا
أكثر وعلى الفيوبة ولا غير ... وعلى شرب يسقط منه عميد الحانة
وجهب الخمرات ولا يسقط الخيام ...

لكنها محض هداية مفلوب يقرأ التقويم بالقلوب ، ويرى البطولة
في أن يسقط الخمار في بركة النهاس من شدة الشرب ولا يسقط
الخيام ... « وظن ما تشاء » ... وأضف الى ظنونك انها مقاومة
الصحو بسكر والواقع بخيال والحقيقة بشعر ... انها الرجولة بين ..
بين أن يسحق الانسان مستسلما منصاعا ، أو أن يعنتر على حصان
من خشب وترس من قطن وسيف من قصب ... فهي اذن مرحلة
صمت الكرامة المحاصرة بمواكب الجهل الاكبر ... وهي حتما مرحلة
ذهول المنطق المفلوب على أمره في حصار هاجت فيه البلادة وتمنرت
الحماقة طيشا واشتد من هيجان البلادة وتمنتر الحماقة على المنطق
حصان يحرم وقدة الذكاء ، ولعمان النباهة واشراق الفكر ...

أما ان شئت اداء حرفيا وصورة قريبة الى الذهن فهي حينئذ
حد الوسط بين بين ... وحد الاتزان ورباطة الجاش ومثانة صبر
الانتظار في مقاومة ترعتين مرذولتين فرار الجبان واندفاع الهوج ...
والفضيلة - ان كان لا بد من موعظة حسنة وبهجة أرسطوية : وسط
بين طرفين مرذولين افراط وتفريط . لكن لهذه الحكمة حدودا تنتهي
عند كون الاعتدال والتريث وطول الانتظار محض وسائل وليست بغايات
مقصودة لذاتها والا استسلم الانسان والى الأبد لمنطق فترات الدهول
فترة بعد فترة وقرنا بعد قرن وأذاقت الانسان علقم العيشة الضنكى ..
وهي مرارة علقم لا تخفف منها مطاولسة الخيام سكر للخمار ...
أضف - ان شئت حصافة - ان الخيام قد يصحو بعد طول السكر على
القضية واذ هي عبر حدود الحل على الصاحي اليقظ وعلى الحالم

ولئن طافت بك طيوف الشعر في أحلام بظفة مثلما طافت طيوف الفلاسفة بافلاطون ، وشئت مستوى فلسفيا من واقع الحياة لعنسى مطاولة السكر مع الخمار وحتى يسقط الخمار فمعناه أن تنبئ لسك أكاديمية يحسبك الناس محض فيلسوف يداري فلسفة تحتضر ... أو محض سكران يطاول الخمار سكرًا في حانة الاقدار ...

وهذا ما جرى لافلاطون بعد أن غسل يديه من شؤون آئيننا التي اختلطت فيها الامور وأذلها الفرس وأهانتها اسبارطة وفشل فيها كل ما وصف لها الساسة بما في الساسة افلاطون والذي شهد انهيار حكومتين ساهم فيهما عضوا عاملا : حكومة الثلاثين وحكومة الخمسين . وساءت الحالة وضافت آفاق آئيننا في عيني افلاطون ، وبدأ يحاول فتحا فلسفيا في الجزائر النائية والممالك البعيدة .. وحاول الفتح في صقلية وفي دويلات آسيا الصغرى وفي كل مكان بلغته رسالتسه ورسله أو وطنه قدماء .. وحتى استنزفت محاولة تحقيق الاحلام قواه وبيع عبدا !

ورجع الى آئيننا يطاول الخمار سكرًا وحتى سقط الخمار وما سقط افلاطون . ثم هي وقبل كل شيء ، حالة البياتي في غربته محاولا مطاولة الخمار سكرًا : مطاولا الحقيقة بشعر ، والواقع بخيال ، والحاضر بالماضي وبالخيال ومطاولة الخيام للخمار سكرًا حتى يسقط الخمار ... ومحاولا ، بمستوى وبمقدار ، مقاومة مرارة الواقع بحجة المفلوب على أمره ... بحجة فيها برود عقل واتزان حكمة ونبسـل احساس وسط ضجة رؤوس هائجـة في موكب الهيجان الاكبر ... (والموتى لا ينامون) :

في سنوات الموت والغربة والترحال

كبرت يا خيام

وكبرت من حولك الغابة والاشجار

شعرك شاب والتجاعيد على وجهك والاحلام

ومات في داخلك النهر الذي أضع نيسابور

وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره

الى البحار ، حمل البنور

وعربات النور

الى غد الطفولة ...

وكل هذا سهل ، فقد كبر الخيام وشاب شعره وبدت التجاعيد على وجهه وماتت أحلامه ... وكل هذا طبيعي مألوف ... وبمسات الاحلام مات في داخل الخيام نهر الخصب ونهر نور الفكر ... النهر الذي أضع نيسابور واخضوضرت المدينة راقصة بشوشة على ضفتي المجرى ... مجرى النهر الذي حمل الزوارق الصغيرة والبنور من أقطار بعيدة الى نيسابور ... فهو نهر الفكر ومجرى النور ... وحمل فيما حمل الى نيسابور عربات نور من حكمة ... ونور من فلسفة ... ونور من شعر .

وكبرت من حول الخيام القبيلة ، وماتت عائشة ، وموت سفينة الموتى بلا شراع وتحطمت على شاطئ الضياع :

« قالت ومدت يدها : الوداع

أراك بعد الغد في المقهى وغطت وجهه سحابه ،

من الدموع بللت كتابه »

وتتجلى في هذه الفقرة روعة القاء نوب معاصر على عائشة وعلى الخيام ، وربما هذا أول استعمال « للمقهى » في عبارة شعرية رائعة عبر أطوار الشعر العربي كله .. وحتما سيأتي يوم تصير فيه للمقهى وللبنديق ومحطة القطار منزلة « الدخول وحومل » بعد أن يرتفع الاحساس والتذوق الى مستوى حياتي معاصر وبعد أن تتجانس الحياة موحدة وفق مقاييس حضارية معاصرة .

ويشتمد الحوار على الخيام عن عائشة روحا خفيفة تدرع الحقيقة فراشة طليقة رغم الموت وعبر جسر الحياة الطائف من الموت البهيم :

« عائشة ماتت ، ولكني أراها تدرع الحقيقة

فراشة طليقة

لا تعبر السور ولا تنام

طامها في هذه الحديقة السحرية »

وتفتتت عائشة الحزن والبنفسج الذابل والاحلام - على تاريخ ذبل في البنفسج وعلى مستقبل تداعبه الاحلام ... وهي في الحديقة لا تأخذها سنة فتنام ، ولا هي قادرة على عبور السور . وعائشة هي قطب غوث الخيام وقطب غوث البياتي وقطب غوث كل خيام وكل بياني وكل متطلع الى الحقيقة في فراشة طليقة :

« أيتها الجنيصة !!

تناثري حطام

مع الرؤى والورق الميت والاعوام

وخضبي بالدم هذا السور

وايقظي النهر الذي في داخلي مات ورشي النور

في ليل نيسابور »

وهذه الفقرة عودة على :

« ومات في داخلك النهر الذي وضع نيسابور

وحمل الاعشاب والزوارق الصغيره

الى البحار ، وحمل البنور »

عودة يستحي بها الخيام النهر الذي مات في داخله ... ويطلب القوت من « الجنية بلهجة لاهل متفائلة :

« ولتبدري البنور

في هذه الارض التي تنتظر الثشور »

... أرض اختلطت مشارقها بهفاربهها وأهلوها أحياء لا يحيون .. وأحياء يهرمون ألف مرة ويعود اليهم الشباب ألف مرة في اليوم ويهرمون .. ويهوتون في الساعة ألف مرة ويعثون ويهوتون أحياء ويعثون ويحيون ولا يحيون ... يعيشون ولا يحيون ... أحياء بين بين ولا يحيون ... وأموات بين بين ولا يهوتون ... وحياة في الموت وموت في الحياة ... يأتون ولا يأتون ...

مدني صالح

بغداد

شعر

من منشورات دار الاداب

ق. ل	للساعر القروي	الاعاصير
٣٥٠	لفدوى طوقان	وجدتها
٣٠٠	»	وحدتي مع الايام
٣٠٠	»	اعطنا حبا
٢٥٠	لعبد الباسط الصوفي	ايات ريفية
٣٠٠	لفواز عيد	في شمسي دوار
٢٠٠	لهلال ناجي	الفجر آت يا عراق
٢٠٠	لعندان الراوي	المشائق والسلام
٢٠٠	لخالد الشواف	حذاء وغناء
٢٠٠	لحمد الفيتوري	عاشق من افريقيا
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	احلام الفارس القديم
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	اقول لكم
٢٠٠	لمعين بسيسو	فلسطين في القلب
٢٠٠	لحسين النجمي	كلمات فلسطينية
٢٠٠	للدكتور خليل حاوي	بيادر الجوع
٢٥٠	لعبد الوهاب البياتي	سفر الفقر والثورة
٢٥٠	لصلاح عبد الصبور	الناس في بلادي (ط . جديدة)
٢٥٠	لابراهيم محمد نجا	الحياة الحب